الفصل الأول

ظلام «أب عاج»

في الجزء الأول من هذا الكتاب سردنا سيرة ومسيرة السيد الصادق المهدي رجوعاً لأوراقه حتى قيام ليل مايو ١٩٦٩م. كان ليلاً طويلاً، استمر لستة عشر عاماً، قضاهم الصادق سجناً وتشريداً وقتالاً ومفاوضة ومصالحة ومواجهة حتى كانت الانتفاضة المباركة عام ١٩٨٥م.

وفي هذا الجزء الثاني تفاصيل هذه الرحلة الشاقة التي التهمت شباب السيد الصادق وهو يكدح نحو فجر الحرية.

كان الصادق أبرز منتقدي الوضع السياسي قبل قيام الانقلاب وتعداداً لمساوئه، وبرغم ذلك كان من أوائل أهداف الوضع الجديد.

في هذا الجزء تمت الاستعانة بالعديد من مدونات وأوراق السيد الصادق، ولكن الكتاب الذي ورد غالبه بدون الإشارة هو كتاب المصالحة الوطنية الذي شكل عظم ظهر هذا الجزء من الكتاب.

قادمون من خورعمر

الانقلابات العسكرية كانت موضة ذلك الزمان في كل أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وكان مما قاله جماعة عبود إنهم استلموا السلطة ليقطعوا الطريق على انقلابات عديدة تضمر للبلاد شراً بزعمهم، كما عانوا هم أنفسهم من انقلابات كثيرة أشرنا لها فاستمرار ديمقراطية السودان وهذه الحالة كان أمراً صعباً ويتطلب وعياً سياسياً وأمنياً لم يكن متاحاً حينها، وحينما حدث الفراغ باستقالة رئيس الوزراء تقدم العساكر، أو قل المناكر! وبمناسبة العساكر المناكر هؤلاء أذكر مدحة الحبيبة رابعة بت بلالة وهي إحدى مادحات الأنصار المعروفات، والتي تقول:

أنصار الدين جوكم يا العساكر

يا الفي خوف قاطعين تذاكر!

شبهت الخوف بفيلم سينمائي «قطع» العساكر تذاكر لحضوره! وهو تشبيه لطيف، وقيل إن أمي السيدة عائشة عبد الرحمن المهدي قالت لها ربما كان هنالك عسكراً محموداً فقولي (يا المناكر) فغيرتها، ولكن ما فتئت النسوة تغنينها بالعساكر! والحقيقة إن هذا الشعب ذاق من العسكر الأمرين سواء أكان يسارياً (**الشعارات التي رُفعت ستائر، خلفها الجاسوسُ يلبسُ ثوبَ ثائر، خلفها العملاء أبطال نواضر، خلفها السودان يسجنه العساكر**[1]).. أو يمينياً (**يا أب دقناً تحت الكاب والإفك رباط البوت.. بين السونكي وحد الناب فلتحكم بالنبوت**)[2].

كانت المنطقة كما قلنا تضج بهم إما قبل انقلاب مايو أو بعده بقليل، فالعساكر استلموا مصر بعد حركة الضباط الأحرار في يوليو ١٩٥٢م، وجاء الانقلاب العسكري البعثي في العراق ١٩٦٨م، واستلم العقيد معمر القذافي ليبيا في سبتمبر ١٩٦٩، واستلم عيدي أمين الحكم في يوغندا بعد انقلاب عسكري في ١٩٧١، وأطيح بالإمبراطور هيلاسيلاسي في أثيوبيا بانقلاب عسكري في ١٩٧٤م وقبله الانقلاب الفاشل في ١٩٦٠م، وهكذا.

أما في السودان فقد تحدثنا عن الجو الانقلابي منذ وقبل انقلاب نوفمبر ١٩٥٨م، وعن القلاقل التي أحاطت بالحكم البرلماني وأفقدت فيه الثقة وصبغته بالتطاحن، والتطور الخطير في النزاع الذي أدى لطرد نواب الحزب الشيوعي من البرلمان وحل الحزب وحظر نشاطه وما أدى إليه ذلك من تذمر وسط قوى اليسار واتجاه جزء منهم للحل الانقلابي حتى بعد احتواء القضية عبر بيان ١٣ مايو ١٩٦٧م، وذلك لمناهضة الدستور الجديد.

وقد تكرر اسم جعفر نميري في انقلابات عديدة حتى قبل حل الحزب الشيوعي مما يؤكد أنه كان ساعياً للانقلاب قبلها.

ففي ١٩/ ١١/ ١٩٦٤م أي بعد أسابيع من ثورة أكتوبر صدر منشور باسم الحزب

(١) من قصيدة للمرحوم فاروق البرير حول الانقلاب، مايو ١٩٦٩م

(٢) من قصيدة للمرحوم محجوب شريف حول انقلاب (الانقاذ) ١٩٨٩م

الشيوعي تحت عنوان «فلتملأ القوى الوطنية الشوارع من جديد» وفيه: المطالبة بإطلاق سراح الضباط الأحرار المعتقلين فوراً. من هؤلاء الضباط: جعفر نميري، فاروق حمد الله والرشيد نور الدين. [١] وقد ذكر السيد فاروق أبو عيسى اعتقالهم ضمن ملابسات بيان ليلة المتاريس[٢].

وفي ٢٨/ ١٢/ ١٩٦٦م حدثت محاولة انقلاب قام بها بعض صغار الضباط وحوالي ٣٠٠ من جنود سلاح الأساس في مدرسة جوردون للتدريب. المحاولة قادها الملازم خالد حسين الكد، واعتقل جميع القائمين بها. وقد شمل الاعتقال بالإضافة للعسكريين عدداً من المدنيين وزعماء الحزب الشيوعي. قال خالد والضباط الذين اعتقلوا معه إن حركتهم كانت تهدف وضع حد لحالة الفوضى السياسية، ومن بين المعتقلين النواب الثمانية الذين رفضت الجمعية التأسيسية عودتهم إليها برغم حكم المحكمة العليا[٣]. وكان أعضاء مجلس قيادة (ثورة) الكد هم: جعفر محمد نميري- الرائد هاشم العطا- الرشيد نور الدين- الرائد الرشيد أبو شامة- الرائد بابكر عبد الرحيم- الرائد مصطفى عبادي- على التوم[٤].

وبهذا يتضح أن جعفر نميري، ذلكم الضابط المتأخر في الدراسة في مدرسة حنتوب الثانوية والذي كانت المظاهرات الطلابية تطلق عليه صفة (طيش حنتوب) أي الأخير في ترتيب مدرسته، والذي أطلقت عليه بطانته لقب (أب عاج) إشارة للعصا العاجية التي كان يحملها والتي قيل إن أحد السحرة أو (الفكيا) قال له سوف يسقط حكمك حينما تنكسر، فكان يحملها في حله وترحاله! كان شريكاً في عدد من الانقلابات، وفي كل مرة تسلم له الجرة حتى نجحت محاولة ٢٥ مايو ١٩٦٩!

كان النميري منتمياً لتنظيم «الضباط الأحرار» وهو يساري التوجه، وقد وردت إفادات متناقضة وآراء متضادة لقيادات الحزب الشيوعي إزاء علاقتهم بانقلابه المشئوم: فالسيد عبدالخالق محجوب نفى تلك الصلة والسيد أحمد سليمان أثبتها.

(١) محمد محمد أحمد كرار الانقلابات العسكرية في السودان (ص ٩).

(٢) تفاصيل ما جرى في ليلة المتاريس موجودة في الجزء الأول (بينج ماريال)

(٣) الأهرام ٢٩ ديسمبر ١٩٦٦م

(٤) (كرار، ص١١)

ومهما يكن فإن الثابت أن الحزب الشيوعي كان يعلم بالانقلاب وحلقة الوصل بينه وبين الانقلابيين كانت فاروق حمد الله. وفي صبيحة يوم ٢٤ مايو ١٩٦٩م استدعى سكرتير الحزب «عبد الخالق محجوب» كلا من محمد إبراهيم نقد والشفيع أحمد الشيخ لمقابلته حيث أخبرهما أنه اتفق مع حمد الله لمقابلتهم لينقلوا له رأي المكتب السياسي للحزب وأخبرهما بما سمعه في أمسية ٢٣ مايو من أن صغار الضباط بالجيش اختاروا النميري لقيادة الانقلاب. كما اجتمعت اللجنة المركزية للحزب مساء ٢٥ مايو لمناقشة موقفها من الانقلاب وانقسمت بين مؤيد ورافض، وكان الرأي الغالب هو التأييد لتوافق الشعارات. بل لقد أكد حمد الله للانقلابيين موافقة الحزب الشيوعي على الاشتراك منذ مساء ٢٤ مايو[١].

تحركت جماعة الانقلاب المايوي ليلاً من خور عمر بأم درمان، فاحتلت الإذاعة والوحدات العسكرية بالعاصمة، وفي صباح ٢٥ مايو ٦٩ عزفت الموسيقى العسكرية بإذاعة أم درمان وأذاعت بيانهم معلنة العهد الجديد.

الصادق ومحاولة الاغتيال الأولى

كان الإمام الهادي حينما قام الانقلاب بالجزيرة أبا التي اتجه لها قبل أيام معدودة منه، وكان يزمع التوجه ذات يوم الانقلاب إلى تلس بجنوب دارفور، بينما كان السيد إسماعيل الأزهري يزمع السفر بذات اليوم لمايرنو وكانت تلك الزيارات في إطار المنافسة على رئاسة الجمهورية وانتخاباتها المقبلة وفقما جاء في كتاب الأستاذ صديق البادي[٢]، أو هرباً من حرج الاتفاق مع حزب الأمة الذي لم يمكن تمريره على مؤسسة حزبهم وفق ما جاء في مذكرات السيد الصادق التي اقتبسنا منها في آخر الجزء الأول (بينج ماريال).

كان السيد الصادق المهدي حينها بأم درمان، ومع إدانته للفساد في الوضع السابق وترحيبه بإصلاحه إلا أنه رفض فرض أجندة حزب أقلية وإقصاء الآخرين، وخاطب الناس في منزله بتلك المعاني، فتمت محاولة اغتياله هو ومن معه من الأنصار

(١) نفسه الصفحات ٢١-٢٢، و٢٤

(٢) صديق البادي احداث الجزيرة ابا وودنوباوي

المتجمعين عبر قوة يقودها الرائد عثمان الحاج حسين (أبو شيبة) لولا أن لطف الله بتدخل من السيد بابكر عوض الله، مثلما روى مشارك أصيل في الأحداث هو الرائد حينها محجوب برير محمد نور.

يروي محجوب أنه صباح الانقلاب التقى السيد بابكر عوض الله نائب رئيس مجلس قيادة «الثورة» ورئيس الوزراء في مدخل القيادة العامة للقوات المسلحة..«كان كمن يبحث عني وهو بادي الاضطراب والقلق،..، وبلا مقدمات أو مناسبة خاطبني في ضراعة ورجاء: يا محجوب أوقف نزيف الدم، نريد لهذه الثورة أن تولد بيضاء ما كان إلى ذلك سبيل. وقال إن عوض الله أخبره بأن (قيادة الحزب الشيوعي) أوهمت نميري بوجود ترسانة أسلحة بمنزل السيد الصادق المهدي الذي تجمع أنصاره المتطرفين حول منزله ينتظرون إشارة منه للتحرك المسلح لإجهاض الثورة. فاقتنع النميري الخائف على نفسه وثورته بضرورة تصفيتهم جميعاً فوراً، وتقرر أن يرسل لهم تحركٌ مسلحٌ بقيادة أبو شيبة، وطالبه بأن يبذل قصارى جهده لوقف ذلك التحرك. وذكر محجوب أنه ذهب وأوقف تحرك أبو شيبة، ثم اتجه لمناقشة الأمر مع نميري الذي قال إنه يريد أن (نتغدى بيهم قبل أن يتعشوا بينا)، وقال محجوب إن النميري كان مصراً على الفكرة وبعد لأي ومحاججة قبل أن يقود محجوب القوى الذاهبة لمنزل السيد الصادق مفوضاً في التعامل مع الأمر وذلك بثلاثة شروط: الأول: أن يكتم خبر تدخل نميري في الأمر ويتقلد كامل مسئولية إيقاف تحرك أبو شيبة وقيادة التحرك بنفسه، وبالكلمات التي ساقها عن نميري (لأني سبق واتفقت مع قيادة الحزب الشيوعي على أخذ زمام المبادأة وتصفية الصادق وأنصاره). والثاني: أن يصدر محجوب أوامر ضرب مؤجلة للقوة المرابطة حول منزل السيد الصادق المهدي، ويدخل وحده لمواجهته فإذا تبين (صدق معلومات الرفاق) فلا تتردد في الاشتباك وتنفيذ المهمة. والثالث: أن ينقل له بأمانة موقف الصادق السياسي والعسكري من (ثورتنا) ويستكشف مدى حيازته للسلاح وتدبيره للتحرك المسلح ضدهم.

وحكا أنه توجه على رأس القوة ضحى يوم ٢٥ مايو متجها لمنزل السيد الصادق المهدي وطلب منه أبو شيبة أن يكون قائداً ثاني للقوة فاصطحبه، ولكن لحقه الرائد فاروق عثمان حمد الله وطلب منه ألا يدع أبو شيبة قائداً للقوة لئلا يقوم بالهجوم خضوعاً

لتوجهه العقائدي.

قال: واصلت سيري نحو منزل السيد الصادق بعد أن أمرت القوة بصوت مرتفع حرصت أن يصل إلى الجموع المحتشدة حول المنزل، بإطلاق النار عند سماع أفرادها لصوت إطلاق النار بالداخل، أو إذا تأخر خروجي عليهم عن ساعة واحدة، وكانت هذه الأوامر على مسمع ومشهد من الأمير عبد الله عبد الرحمن نقدالله وهو يعرفني وأعرفه، وقادني والأخ أبو شيبة وسط جموع الأنصار إلى لقاء السيد الصادق المهدي بالداخل[1].

وسوف ننقل من مذكرات السيد الصادق المكتوبة في الأسبوع الأول من يونيو ١٩٦٩م وقائع ما دار[2]:

(لقد وصل نبأ انقلاب مايو إلى علمي ساعة قبل وقوعه وكنت في الخرطوم وخرجت فرأيت حيث ذهبت تحركات ومصفحات..إلخ، وكان في خاطري صراع بين ترحيب وإشفاق. إشفاق لأن الانقلاب معناه دخول الجيش الميدان السياسي وهذا معناه أن يتعرض الجيش للفساد السياسي حتماً فإن اعتقادي كان دائماً أن الجيش ينبغي أن يكون وطنياً وملماً بالقضايا العامة ومتحمساً لها، ولكن دخوله الحكم معناه تعرضه للتحزب ودخوله المعترك السياسي بكل مخاطره. وإنني كنت ولا زلت اعتقد أن الدول العربية لن تكون لها جيوش بالمعنى الحقيقي فتقاتل ما دامت القيادة السياسية فيها تُحزّب الجيش فتفسد ضباطه عن طريقين: الفئة التي تقربها وتعتمد عليها تتحول إلى طبقة جديدة من الذوات ويصبح لا هم لها إلا الرحلات والتصريحات وولوج أبواب هي عاجزة عن ولوجها فتبدأ عملية مطاردة بين الضابط والصورة التي رسمها لنفسه في الخيال وهي مطاردة لا تنتهي إلا بإفساده كعسكري، أما الفئة الأخرى التي تتخوف منها القيادة فتجمد أوترسل للمعاش وفي الحالين الجيش خاسر والبلاد معه. وبالطبع فإن أي انقلاب يولد ومعه انقلاب في جيبه «ومن ارتفع بالسيف فبالسيف ينزل» كما يقول المسيح، ومعنى ذلك الدخول في فترة من المغامرات لا ندري متى وكيف تنتهي؟

(١) محجوب برير محمد نور مواقف على درب الزمان الصفحات ٢٩٩-٣٠٧

(٢) المذكرات في كراسة بخط الوالدة سارا الفاضل ولكن الراوي فيها هو الحبيب الإمام. وكانت في الماضي تنقل كتاباته وتبيضها بخطها فكثير من كتاباته موجودة بخطها. وقد قمت بنقل هذه المذكرات الهامة مع بعض التحرير والتصرف. (كتبها أثناء إعتقاله بجبيت)

وأما الترحيب فسببه أن أحوال البلاد كانت في حضيض لا يعلم مداه إلا الله.

ولم أنم تلك الليلة وبقيت في منزلي، وحوالي الساعة الثالثة إلا ربعاً أرسلت إلى أحد الضباط في ود نوباوي أن يذهب ويستفسر فذهب وجاء ليؤكد أن انقلاباً وقع وأنه تحدث مع أحد الضباط الذين أحاطوا بمنزل السيد أزهري وهنا كتبت خطاباً للإمام بأبا للمعلومية بما حدث.

وبقيت حتى أذيعت البيانات واتضح لنا أن المدنيين عبارة عن أصدقاء أو محاسيب للسيد بابكر عوض الله، وبعض الشيوعيين، وبعض العناصر الأخرى التي تتلون بلون الإناء الذي توضع فيه، مع عزل حزب الأمة وعزل سانو، فشعرنا بأن الانقلاب قد اتخذ شكلاً مدنياً غير مناسب فبدأ شعورنا بالإشفاق على مصير البلاد.

والحقيقة أن جماعتنا كانوا مستخفين جداً بالوضع الجديد، بأن جنوده قليلون وبأن الجيش لن يتضامن معه. وفي فورة حماسهم هذا، جاء ضابطان معهما ٢ عربة ومصفحة وجنود هما محجوب بربر وأبو شيبة وكان مظهرهم أمام منزلنا استفزازياً وكان رد الفعل من ناسنا عنيفاً فكادوا أن يبطشوا بهما، ثم دارت محادثة بيننا وبينهما.

قال محجوب إن الجماعة التي قامت بهذه الثورة مؤمنة بأهدافها وستضحي بالحياة لحمايتها ولن تسمح بمعارضة ولن تعتدي على أحد، وكان معنا في الاجتماع الأمير نقد الله والسيد صلاح عبد السلام فقلت لهما قولا لهم: نحن مع إدانة الفساد البائد ومع ضرورة الإصلاح الثوري وضد التسلط الشيوعي، ونتمسك بمبادئنا دون تردد أو خوف من وعيد.

كنا في حالة حماس شديد، ولكننا كالعادة لم نكن مستعدين لأمر ما، وأرسل لي وزير الداخلية ضابطين بوليس ليقولا إنه يريد مقابلتي الساعة ١٢:٠٠ في مكتبه فقلت لهما قولا له إنني لن أحضر). أ.ه.

في بيت المهدي ثم إلى أبا

وكتب محجوب بربر في مذكراته كذلك إن الأنصار تجمعوا ليلة ٢٥ مايو حول قبة الإمام المهدي فتصدت لحشدهم قوة عسكرية ففرقتهم[1].

(١) محجوب بربر ص ٣٠٩

يقول السيد الصادق في مذكراته:

(تزايد حماسنا ورأينا أن نذهب إلى بيت المهدي وليست لنا فكرة محددة غير أننا نريد أن نجتمع ونواجه المفاجأة. ودعوت المجلس العالي للحزب إلى بيت المهدي الساعة ٢:٠٠ وتسامع الناس بوجودنا في بيت المهدي فتوافدوا. أما المجلس العالي فإنه في النهاية رأى أن يوكل إلىّ الأمر أصنع فيه ما أرى مناسباً لحماية البلاد.

وفي المساء في بيت المهدي وبعد صلاة المغرب خطبت في الحاضرين وقلت إننا لا نوافق على الطابع الشيوعي الذي انطبع على هذه الحكومة ولا نستكين لها، وسنعارض هذا الوضع.

وفي صباح اليوم قبل هذا الاجتماع جاءنا في بيت المهدي السيدان يسن محمد أحمد ومحمود. وقالا إنهما والاتحادي الديمقراطي يقفون معنا وسيقومون بما نقرر، وأن الأمر بيدنا وكانا أيضاً في حالة استخفاف شديد بما وقع.

وعناصر كثيرة تدافعت إلينا منها حلفاؤنا الأقدمين ومنها آخرون وبدأنا نفكر ماذا نصنع إذا اعتدى علينا. وأمضيت يوما في بيت المهدي محروساً، ثم بدأت الحكومة تطوق منزلنا بحي الشاطئ[1] وبعد يوم من ذلك بدأت تطوق بيت المهدي ونشأ في ذهني اعتبار هام وهو هل هناك داعٍ للمقاومة والدماء؟

رأيت أن ذلك يدخل البلاد في فتنة كبيرة، وربما أمكن تفاديها ولذلك خرجت من بيت المهدي، ومررت على السيد أحمد المهدي لأخبره أنني بالتشاور مع الأمير نقد الله رأيت أن أذهب إلى الجزيرة أبا وأرى أن يذهب أحمد أيضاً وذهبت منه إلى منزل السيد إبراهيم النور وبقيت هناك حتى ذهبت ليلاً إلى أبا.

وفي أبا تفاكرنا مع السيد الإمام واتفقنا أننا في الوقت الحاضر نوضح موقفنا لناسنا وننتظر ما تسفر عنه التصرفات والأيام، وذهبت من أبا إلى سنجة على أن أقوم باتصالات بجميع الناس ليفهموا أننا لا نؤيد هذا الوضع ولكن عليهم ألا يقوموا بأي عمل استفزازي، وكانت إقامتي بالرايات.

(١) هو حي الملازمين حالياً وكان يسمى حينها بحي الشاطيء

ثم طرأت عليّ بعض الأفكار، ورأيت أن أعود إلى أبا لبحثها، وكذلك رأيت أن أكتب إلى بعض معارفي من الضباط من زاوية شخصية عساهم يجدوا سبيلاً لإخراج البلاد من هذا الموقف بالتفاهم، وتحمسوا لذلك عندما وصلتهم الرسالات.

وبينما أنا في أبا جاءنا السيد الفاتح عابدون مع السيد إسماعيل ليقولا إن القيادة تريد التفاهم معنا، وأكد السيد الفاتح أن النية صادقة، وأقسم له وزير الداخلية فاروق حمد الله بشرفه العسكري فيما يتعلق بالتعرض لي بسوء.

وقبل ذلك جاء الأمير نقد الله، وحكى لنا أنه اعتقل ليلاً، وبعد مضي زمن يسير طلبه وزير الداخلية ليعتذر له عن ذلك الإجراء وقابل به مجلس الشورة لاعتذار مماثل، فشكرهم الأمير والتمس الفرصة ليتحدث إليهم في الأمر وخرج بنتيجة أن ما قاله كان مقبولاً لديهم على وجه العموم، وأن مقابلتي لهم ممكنة، وأن مواصلة الحديث معهم لازمة، فهل يفوض لذلك أم أذهب إليهم أنا للمفاوضة؟

أنا شخصياً كنت راغباً في الخروج من أبا:

أولا: لأن وجودي هناك مع التحدي الذي قمت به للوضع الجديد يلفت نظره إلى أبا، وأنا أعلم أن في ذلك تعريض لرجال أبرياء مستعدون للتضحية لخطر لا أوافق عليه.

ثانيا: لأن خروجي من الخرطوم كان مفاجئاً فيحسن أن أعود إليها، ولكن أهم شيء في نظري هو أن أزيل وجه الخطر المباشر من أي تصرفات عسكرية ضد أبا.

ثالثا: ومن أقبح ما أقلقني وأنا هناك أن جاء الهندي صباح يوم للتعاون أو التفاهم، ولم يكن هذا رأيي عن المنبر الذي نحاول به إصلاح الأحوال الجديدة.

كل هذه العوامل تضافرت لتجعلني اقتنع بضرورة الذهاب للخرطوم، فإن كان التفاوض سبباً فنعم السبب، ومع أن مخاوفاً ما كانت في خاطري وخواطر آخرين أن غدراً ربما دبر، قررت أنا شخصيا أن أذهب مهما كانت المخاطرة، وأن أقول أشجع وأوضح كلام سمعه هؤلاء الضباط منذ استيلائهم بغرض النصحية، وبغرض تأكيد أن السودان هذا ليس سهلاً فيخضع دون إقناع، وبعد ذلك فليكن ما يكون.

ألم يكن من الأصلح تفويض الأمير لبحث الأمر معهم؟ ألم يكن من الأصلح عدم

الذهاب للخرطوم؟ ألم يكن من الأصلح أن يتسم حديثي بقدر كبير من اللين؟

ربما، ولكن الفكرة التي استولت عليّ هي: إزالة الخطر المباشر من أبا وسكانها أولاً، والتعبير عن عدم الاستكانة بسبب الخوف من الحكم الجديد ثانياً.

ما هو الحكم على هذا الموقف؟ الأيام ستفصح.

ذهبت إلى الخرطوم وتمت المقابلة يوم الثلاثاء ويوجد نص كامل بكل ما جرى في غير هذا المكان إلى اعتقالي وحضوري إلى جبيت)[1].

كانت المقابلة بين الصادق وبين النميري في يوم ٣ يونيو ١٩٦٩م.

وأنت تجد في هذه القطعة الهامة من مذكرات السيد الصادق التي دونها في أوائل يونيو ١٩٦٩م وهو بمعتقل جبيت العديد من الحقائق التي أغفلتها حتى الأدبيات التي وثقت للفترة مثل كتب المصالحة الوطنية، فالسيد الصادق بادر بتحدي النظام وضباطه المرسلين، كما رفض المثول أمام وزير الداخلية الذي طلب لقاءه، وكان مستهدفاً حينها بالاغتيال لولا لطف الله، وذهب لأبا ليتفاكر مع عمه، وكان خروجه من أبا بسبب تجنيب أهل أبا البطش بسببه وليس العكس فلم يكن أحد يستطيع قراءة الغيب وأن أبا سوف تتعرض للبطش بعد عام.

وكان خطاب السيد الصادق للضباط لإيجاد مخرج بعد ذهابه لأبا ثم للرايات، وفي هذا تروي المرحومة الوالدة سارا الفاضل عن رحلتها للرايات والأوراق التي سلمتها للحبيب السيد الصادق، والخطابات التي تسلمتها منه، وقد ذكرت أن الخطابات التي تسلمتها كانت للضباط الذين قاموا بالانقلاب، وهذه الواقعة أثبتها أحدهم وهو محجوب برير محمد نور مما يعني أن السيد الصادق خاطب قادة الانقلاب وضباطاً من معارفه ليتدخلوا بالإصلاح أو التفاهم.

وقد روت أمي سارا رحلتها لسنجة وقد تركت صغيرتها طاهرة المولودة في مارس وعمرها أقل من ثلاثة أشهر من خلفها، ذهبت بصحبة العم قريب الله رحمه الله الذي كان سائقاً لعربة السيد الصادق حينها. وقالت إن قريب الله سلمها رسالة من السيد الصادق

(١) المقابلة نشرت في كتاب المصالحة الوطنية وسوف نلخصها لاحقاً.

طلب فيها منها إحضار بعض الأشياء والأوراق، وذهبت مع قريب الله وهي تعتقد أن الصادق لا زال بشمال أم درمان (لعلها تعني منزل السيد إبراهيم النور)، ثم قالت: (بعد أن وصلنا الكاملين سألت قريب الله إلى أين نحن ذاهبان؟ قال لي «أنا من قبيل متخيل تسأليني السؤال دة»، وقلت له «إنت قلت لي الصادق دايرك وجيت معاك». ونزلت أمطار شديدة جداً بينما أنا وقريب الله مسافران، وكنت لابسة «جبة» من جبب الصادق وقد ربطت الأوراق المطلوبة حول بطني تحتها. وأخبرني قريب الله بأن الصادق في الرايات بالقرب من سنجة محل ناس السيد إسماعيل الخليفة شريف)[1].

وقالت إنهما لما ذهبا للرايات وصلا متأخرين بسبب الأمطار، ووجدا أن البوليس داهم الصادق والجماعة معه في الليلة السابقة، فقاموا (وكانوا ثلاثة أو أربعة) بدفن السيارات التي كانت معهم تحت الأشواك وذهبوا لمكان اسمه الجوامعة يبعد بالعربة حوالي ساعة من الرايات، و(لم يكن من الممكن الذهاب بالعربية لأن الدنيا خريف شديد والعربية التي جئنا بها نفسها أخفوها ومعها قريب الله. وجدت هناك شيخ «المهل»[2] وجاؤا لي بحمار ومن بنات السيد إسماعيل «توب زراق» و«قفة»، وصرت مسافرة بالحمار). وقالت إنهم وصلوا للجوامعة بعد حوالي ثلاث ساعات وزيادة، ووجدوا الصادق ومن معه مستعدين للذهاب للجزيرة أبا فأعطته الأوراق والأشياء التي طلبها، وناولنها جوابات لبعض الضباط منهم نميري ومحجوب برير محمد نور.

خدعة الحوار!

روى محجوب برير أن بابكر عوض الله الذي تدخل بداية ليحبط محاولة الاغتيال الأولى ثارت ثائرته لما علم أن الصادق يحذّر قادة الانقلاب من الشيوعيين ومن بابكر عوض الله فقال (إما الصادق وإما الثورة)[3] وقال إنه في اجتماع عقد في ثالث يوم لانقلاب مايو، ٢٧ مايو ١٩٦٩م، (كان من بين أجندة الاجتماع كيفية التعامل مع السيد الصادق المهدي إزاء موقفه المعادي للثورة في ذلك الحين، أو كما توهم البعض سعياً لتصفيته والخلاص منه! فرأى مولانا بابكر عوض الله ووافقه نميري وكل أعضاء

(١) كتابات وأقوال السيدة سارا الفاضل جمع وتحرير رباح الصادق، ٢٠٠٩م

(٢) شيخ المهل كان من الأنصار المقيمين بمنزلنا في طفولتنا، رحمه الله.

(٣) محجوب سابق ص ٣٠٧

مجلس قيادة الثورة،..، اعتقال السيد الصادق المهدي وإبعاده إلى حامية جبيت، ليكون بمنأى عن أنصاره، وهذه، كما قالوا أولى خطوات القرار الكبير! وكان واضحاً أنهم يعنون بذلك التصفية البدنية بصورة لاحقة إذا اقتضى الأمر)[1]. (وفي مرحلة التنفيذ بدأوا الاتصال ببعض معاونيه وقادة حزبه كالأمير عبد الله عبدالرحمن نقد الله والسيد صلاح عبد السلام وغيرهما)[2].

وذكر كيف رفض هو نفسه هذا الاتجاه باعتباره حنث بالمواثيق والعهود، وسبق أن أعطي السيد الصادق الأمان على نفسه وأنصاره. ثم وصلتهم في نفس اليوم رسالة من السيد الصادق المهدي موجهة له وللنميري قال فيها إنه لم يستغرب الانقلاب العسكري بسبب ما اكتنف الأوضاع السياسية من تردٍ وصراع عقيم، وخرق للدستور والمواثيق، ولكنه يرى أن يكون الانقلاب العسكري وسيلة للإصلاح ووضع الأمور في نصابها العادل الذي يخدم مصلحة البلاد لا غاية في ذاته و«تكراراً لتجربة فاشلة سبق أن رفضها شعب السودان»، وأنه على استعداد للاتصال بالقوى الوطنية ذات الثقل لاقناعهم بالتعاون مع الثورة إذا اتفق على فترة انتقالية تجري خلالها إصلاحات سياسية ودستورية، وأنه يحذر من التعاون مع الحزب الشيوعي، مؤكداً أنه لم يخطط لتحرك عسكري مضاد.

ولكن تلك الرسالة لم تغير في الموقف المتخذ من خداع السيد الصادق والتغرير به بإرسال من يوهمه بأنهم يطالبون بالحوار، بل مضوا في خطتهم، فأعادوه من الجزيرة أبا وكانت الخطة (كميناً معداً بإتقان، وأرسل على متن طائرة خاصة إلى منفاه بجبيت)[3].

جاء السيد الصادق للحوار وقابل بالفعل النميري وتحادثا في جلسة أولى، ولما كان بانتظار الجلسة الثانية أخذ خداعاً لجبيت.

ملخص ما دار بين الصادق والنميري

ذكرنا أعلاه أن لقاء جمع بين السيد الصادق وبين قائد الانقلاب الجديد جعفر محمد

(١) محجوب، سابق ص ٣٢٦

(٢) نفسه

(٣) محجوب برير سابق ص ٣٢٩-٣٣٠-٣٣١

نميري في يوم ٣ يونيو ١٩٦٩م. استمر هذا اللقاء ثلاث ساعات.

جاء في كتاب المصالحة الوطنية:

(قال نميري للسيد الصادق إنهم قاموا بالثورة لحاجة البلاد لها وعرض عليه بحث الوسائل ليتعاون السيد الصادق معهم لأنهم يعلمون أن أفكاره تقدمية. وأكد السيد الصادق أن الوضع البائد مدان وعاجز، ولكن لكي يمكن التعاون لا بد من القيام ببرنامج للإنقاذ، وقال السيد الصادق إنه يلتزم بتأييده وتأييد الإمام الهادي والسيد إسماعيل الأزهري وغيرهم من القادة السياسيين السودانيين، وذلك في حالة تحول الثورة إلى شكل قومي وطني لا شيوعي أو متحالفة مع الشيوعيين كما هي حينذاك. فإما أن يبعدوا كل الأحزاب أو يشركوها كلها.

البرنامج الثوري البديل الذي طرحه السيد الصادق كان يتكون من ١٢ نقطة كالتالي:

(١) تكملة الاستقلال الاقتصادي بتأميم وسودنة الشركات الأجنبية.

(٢) تأمين سيطرة القطاع العام علي الاقتصاد الوطني بتأميم المصارف إلا البنك التجاري السوداني لأنه شركة سودانية عامة؛

(٣) حل سياسي لمشكلة جنوب السودان علي هدى توصيات لجنة الإثني عشر ومؤتمر جميع الأحزاب؛

(٤) تحقيق الإصلاح الزراعي لتصبح المشروعات الزراعية ملكية تعاونية لمزارعيها، ولينعم مشروع الجزيرة بعلاقات إنتاج جديدة.

(٥) حل اتحاد نقابات عمال السودان وتكوين تنظيم العمال في نقابات شاملة وديمقراطية يضمها تنظيم عمالي قومي موحد؛

(٦) حل اتحاد الشباب السوداني وتكوين تنظيم قومي ديمقراطي للشباب السوداني؛

(٧) حل الاتحاد النسائي وتكوين تنظيم نسوي قومي ديمقراطي يقوم باستنهاض المرأة السودانية؛

(٨) انتهاج سياسية خارجية يمارس السودان بموجبها دوره العربي الرائد

والأفريقي القائد والعربي الأفريقي الرابط والدولي المحايد بين المعسكرين العالميين؛

(٩) محاسبة الفاسدين في العمل السياسي وإقامة محكمة شعب لمحاكمة الذين أثروا علي حساب الشعب والذين ارتكبوا المفاسد السياسية؛

(١٠) تطبيق توصيات لجنة إصلاح الخدمة المدينة وتطهير الخدمة المدينة على أساس عادل؛

(١١) المحافظة علي كيان القوات السودانية المسلحة درعاً حامياً للوطن ومشاركاً في مسيرته، ومراجعة قرارات إبعاد الضباط الأكفاء أمثال الباقر ومزمل والشفيع ما داموا أكفاء والجيش محتاج للكفاءات.

(١٢) التعامل مع كل الكفاءات الوطنية واتخاذ موقف موحد من الأحزاب السياسية لضمان قومية نهج الثورة السودانية.

وعد النميري ببحث المسألة مع زملائه في مجلس قيادة الثورة على أن يفيد السيد الصادق بالقرار الذي سيتخذ، وبدلاً عن إعلامه بالقرار الذي كان ينتظره، تم إرسال ضابطين للسيد الصادق في مساء يوم ٤/٦/١٩٦٩م ليذهب لرئاسة القوات السودانية في الخرطوم لمواصلة الحوار وهناك أحتجز وأعتقل وأرسل الي جبيت بشرق السودان.

بعد ذلك أعلن المتحدث الرسمي باسم الحكومة السيد فاروق أبو عيسي أن الثورة لم ولن تفاوض أحداً، وسار الاتجاه الإعلامي الحكومي في خط صدام، وقال المايويون إنهم (تحفظوا) على السيد الصادق).

وقال الإمام مؤخراً[1]:

(بالفعل جئت إلى الخرطوم وتم لقاء أول بيني وجعفر نميري. كنت وحدي أنا وهو، واللقاء تم في القيادة العامة في مكتبه. وقلت له أنتم قمتم بانقلاب وهذا ليس مجرد تغيير في السلطة بل هو تغيير للنظام الاجتماعي في السودان بالكامل، لأنكم تبنيتم شعارات الحزب الشيوعي (وغالطني في هذه النقطة)، وقال لا نحن اتجاهنا وطني وقومي، قلت له شعاراتكم شعارات الحزب الشيوعي، وكوادر الحزب الشيوعي التي كانت مرشحة

(١) من الحلقات التوثيقية التي أجرتها معه صحيفة الأخبار ونشرت في أغسطس ٢٠١١م

في الانتخابات قبل الانقلاب هم الآن وزراء في الحكومة، والفصائل التي أيدت الانقلاب اتحاد نقابات عمال السودان والاتحاد النسائي واتحاد الشباب السوداني، هذه واجهات للحزب الشيوعي، فلن تستطيعوا أن تنكروا أن النظام في حضن الحزب الشيوعي، لذلك أمامكم خياران إن كان هذا هو خطكم، إما أن تستقطبوا بقية السودانيين المعادين للحزب الشيوعي ضدكم أو تقولوا إنكم جئتم للإصلاح وتتخذوا نهجاً قومياً بعيداً عن الشعارات الحزبية المنحازة، وعند هذه النقطة اقتنع النميري، وقال انا موافق وهذا الكلام معقول جداً.. وطلب أن يناقش هذا الكلام مع زملائه في مجلس قيادة الثورة وآخرين، وانتهى اللقاء على أن نجتمع مرة أخرى لمواصلة التفاكر حتى نصل لتفاهم، واتفقنا على أن يتم الاجتماع بعد يوم أو يومين على الأكثر.. لقائي الأول بالنميري كان في ٣ يونيو ١٩٦٩ م، وفي فجر ٤ يونيو جاء عدد من الضباط إلى المنزل وطلبوا مني أن أذهب معهم للقيادة العامة لمواصلة النقاش، ولكن كان من الواضح أن هنالك خدعة، وذهبت معهم إلى القيادة وبقيت في مكتب الضابط العظيم وعندها تأكد لي أن الأمر لم يكن لمواصلة الحوار وإنما عملية اعتقال.

وما حدث أن نميري عرض ما دار بيننا في اللقاء الأول على زملائه في مجلس الثورة، ووقتها كانوا تحت توجيه ومشاركة من العناصر الشيوعية، فرفضوه جملة وتفصيلاً، بل قالوا له نحن قمنا بثورة لنحقق برنامجنا وليس برنامج الصادق المهدي، واتفقوا على أن ينكروا التفاوض بين نظام مايو والصادق وحزب الأمة قبل أن يتسرب للناس، ورأوا أن يعلنوا ذلك رسمياً وبالفعل أعلنوه على لسان السيد فاروق أبو عيسى، وفي ذلك الوقت كان أحد كوادر الحزب الشيوعي، وكان من الواضح أن هنالك عنصراً آخر مشترك مع الانقلابيين، وهم الناصريون ويمثلونهم السيد بابكر عوض الله والضابطين أحمد ومحمد عبد الحليم، وفي فجر ٥ يونيو وأنا في مكتب الضابط العظيم في القيادة جاء الضابط محمد عبد الحليم وقال لي سنذهب إلى مكتب آخر حيث يتصل الحوار، إلا أننا عندما تحركنا اتجهنا إلى المطار، وفي المطار كانت هنالك طائرة مجهزة أقلتنا- والعملية كلها كانت عبارة عن خديعة، وكل الاعتقالات التي حدثت لي في تلك الفترة كانت تتم عن طريق الخدعة. ونزلت بنا الطائرة في حامية جبيت وتم اعتقالي وحبسي في أحد بيوت الضباط، وأمضيت فترة ليست بالطويلة، حوالي شهرين، وعزلت خلال هذه الفترة عن أي اتصال بالخارج).

كان السيد الصادق يومها غير مستغرب اعتقاله كما تشي مدوناته في الأسبوع الأول من يونيو ولكنه كان مستغرباً للخديعة. والخديعة كانت مبيتة أصلاً، وفق ما دون محجوب بريز في مذكراته كما رصدنا.

هذي جبيت وقد بدت

ما أن تذكر جبيت إلا وتذكر قصيدة الشاعر مصطفى التني (الطبيعة تصحو) وفيها:

صحت الطبيعة فانتبه ما بال عينك ناعسة

هذي جبيت وقد بدت.. في فتنة متجانسة!

وهنا الأراك وعنده قصص الغرام الدارسة

بيد أن جبيت يومها قد بدت بشكل مختلف! كانت مقراً للاعتقال، ففي جبيت مدرسة للمشاة تابعة للجيش السوداني، تم اعتقال الصادق في إحدى المباني التابعة لها.

ومع أنه لم يكن اعتقالاً قاسياً كما تشي مذكرات السيد الصادق يومها، ولكن أحاط بالوضع الغموض والتساؤلات، ولن أفسد عليكم بتحليلاتي لأن السيد الصادق يومها كان يفكّر مع نفسه ويقيّد أفكاره في الورق، أوراق جمعت في بدايتها «قصص الطحان الدارسة» إبان العهد الديمقراطي الثاني، وقد اقتبسنا جانباً منها في نهاية الجزء الأول من الكتاب (بينج ماريال).

تساؤلات جبيت

كتب متسائلاً في الأسبوع الأول من يونيو ١٩٦٩م:

(لماذا قرر النظام الجديد اعتقالي بينما كانت الروح التي أبداها من قابلتهم من قادته روحاً طيباً جداً؟

أولاً: إنني لا بد أن اعترف بإنني هاجمت الوضع الجديد أوضح وأعنف من أي شخص آخر وكذلك أصبحت رمز التحدي له.

ثانياً: بعض المدنيين الذين اتخذتهم هذه الحركة سيعلمون أن هجومنا الإساسي ضدهم ولذا سيكون كل همهم محاولة إبعادنا وإنهم ألحف بحجتهم من العسكريين

الذين معهم يتعاملون.

ثالثاً: إن الوضع الجديد أعطى لنفسه صورة الحزم التام فلا يستطيع أن يعمل استثناءات، لذلك فأنا أفهم الدوافع التي جعلتهم يقدمون على هذه الخطوة.

ولكن لماذا أقدموا عليها بطريق ملتوٍ؟ لماذا ضللت؟ هذا سؤال لا بد من أن أجد له إجابة يوماً ما. ربما تكمن الاجابة في الطبيعة المهتزة للوضع الجديد فهو وضع بطبيعته ثنائي ولا يستطيع أن يمضي في اتجاه واحد وهذا سبب القرارات المتعارضة والتردد الملحوظ في كل ما أقدموا عليه، وقد اتخذوا بطانة مدنية ذات أحقاد تكفي لترجح بالسودان كله، وستحاول هذه البطانة أن تستفيد من البأس العسكري لتصفية خصومها. وهؤلاء العسكريون لا يعرفون العلاقات بين الناس ولذا سيقعون فريسة لهذه الأحقاد.

عشرات من أكفأ السودانيين ذهبوا للمعاش أو أبعدوا ممارسة لمشاعر شخصية. إنني أفهم جداً ضرورة التطهير لإبعاد العناصر الفاسدة، ولكن التطهير الذي يبعد عناصر هي من أفضل أبناء السودان في أجهزة الدولة المختلفة والجيش ضمنها لا يمكن أن يسمى إلا إجراءً حزبياً شخصياً.. لك الله أيها السودان تتطلع لكل سحابة غبار تعتقدها كتيبة نجدة وكثيراً ما ينكشف الغبار عن كتيبة غارة!)[1].

تعليق: ستدرك أيها القاريء الكريم أن السيد الصادق أضره اسمه، إذ لكل امريءٍ من اسمه نصيب، وهو ثمن فادح أن تدخل السياسة وفي بلد يكره الناس فيه الوضوح ويتحاشونه، ويكون اسمك الصادق الصديق وأنت تحمل نصيباً كبيراً منه! في حكايته للقصة لقناة الجزيرة هذا العام لا يرويها الصادق كمؤامرة فهو لم يجد الإجابة ربما بعد. وسوف تتكرر اللقطات التي ننبهك فيها أيها القاريء/ ة الكريم/ ة إلى تحليل يؤكد مؤامرة محبوكة بعناية لخداع السيد الصادق، ولا يسيء الظن بالقدر المطلوب.

طبيعة النظام الحالي

تساءل السيد الصادق في ٢٧/ ٦/ ١٩٦٩م عم يحدث بعد اعتقاله مقلباً الاحتمالات بين أن يعطي الاعتقال محركاً مباشراً فترتفع الروح المعنوية، أو تنخفض لانعدام

(١) دفاتر مذكرات جيبت

شخص محرك، وبين أن يجلب له الاعتقال عطفاً أو في المقابل يجلب شماتة واستخفافاً، وبين أن يثبت النظام قوة وفعالية ويزف الناس في نصرته، أو يعزل نفسه ويبدأ الدوران في فلكه نحو العزلة، وكتب متسائلا عن نوع التغيير المطلوب مؤكداً ألا عودة للنظام البائد، وحول طبيعة النظام الانقلابي، وقال:

(تبدو لي الحقائق الآتية عن طبيعة النظام الحالي:

الضباط وأنا أعرف بعضهم وقابلت بعضهم بعد الثورة متحمسون للإصلاح. وكنت دائما أحس بالحاجة إليه، وقد درست كل أوضاع الجيش ولكن من الواضح أنني لم أستطع الإقدام على عمل شيء في ظل حكم ائتلافي وفي ظل الديمقراطية للاتهام بأننا نريد أن نؤثر على الجيش وهذا الاتهام قوي وصعب أن يجابه في تلك الظروف هذا بالاضافة إلى أننا كنا دائماً نقول إن الجيش يجب أن تكون له حرمة لحساسية وضعه. هذا أعجزنا عن عمل إصلاح حاسم وهذه هي مبررات مشاعر الضباط.

ولكن هؤلاء الضباط أبرياء من الانتماء السياسي المحدد والفكر السياسي المنظم هذا مصدرالأمل في أن يتجهوا نحو الإصلاح غير المشوب بالأحقاد والانحرافات، ولكنه أيضا مصدر الضعف الذي تسلل منه التسلط الجديد فهل يستطيعون جر هؤلاء الضباط إلى أهدافهم؟

ربما وربما يحدث انفلات في هذا الصدد.

السيد بابكر عوض الله عنده اتجاهات مثالية لا صلة لها بما هو موجود بالسودان، وعنده مشاعر محبة وكراهية شخصية هي ميزانه، وفي نطاق المثاليات هذه والمشاعر القوية والمشاكل الشخصية التي وصلت درجات غريبة على البيئة السودانية، فالسيد بابكر عوض الله وهو رئيس قضاء كان في حالة مقاطعة بينه وبين كبار القضاة كالسيد محمد يوسف مضوي بلغت حد إسقاطه التحية بينهم! وهو في منصبه ذلك كانت علاقاته الخاصة أغلبها مع أشخاص أجانب بالنسبة للمجتمع السوداني. والسيد بابكر وزن ثقيل على كاهل النظام الحالي وسيكلفهم تكاليف باهظة فهل يدفعون الثمن؟ أم يضيقون به ذرعاً؟

والمجلس الذي اختاره لهم أو اختاروه له مجلس ليس فيه تجانس ولا يحتمل أن

ينشأ فيه أي تجانس وهو مجلس خفيف الوزن جداً.

وكيف العلاقة الثنائية بين هذا المجلس ومجلس الثورة؟ أيهما يحكم فعلاً، فالحكم عقيم ولا يعرف التقسيم خصوصاً مع عدم وجود دستور يحمي التقسيم؟

وماذا يكون من أمر مجلس الثورة نفسه في داخله وفي علاقاته مع الجيش؟ وماذا تكون علاقة المجلس بالضباط والجنود الذين ساهموا في الثورة ولم يدخلوا المجلس؟ وماذا تكون علاقات ضباط مجلس الثورة وبعضهم صغير المكانة في الجيش ببقية ضباط الجيش الذين يفوقونه في الرتب؟ وماذا تكون العلاقة بين السيد نميري وهو رأس الدولة بمجلس الوزراء وهو أحد أعضائه؟ هذا الوضع بهذا الشكل لا يمكن أن يستمر فلا بد من تغيير يحسم ويحدد معالم هذه الأسئلة وسيسعى قوم لتغيير بسيط ويسعى آخرون لتغيير جذري وفي هذا تكمن بعض مجالات الاختلاف.

السؤال المهم إلى أي مدى تستفيد الأفكار الشيوعية من الوضع الجديد؟ وإلى أي مدى يستفيد الحزب الشيوعي؟ أما الأخير فلن يستفيد لأن نظام الحزب الشيوعي أن يستولى على السلطة ويسير الأمر وفق مخططاته المعروفة. ولكن الأفكار الشيوعية ستجد مناخاً صالحاً. ولكن هل للشيوعيين بالسودان أفكار؟ ليس في الصعيد الداخلي فإنني أستطيع أن أؤكد أنهم في الصعيد الداخلي أشبه بالاتحادي الديمقراطي أبرياء من الفكر والتخطيط لإخراج السودان مما هو فيه، ولكن لديهم تعليمات واضحة في الصعيد الخارجي: مساندة خط مصر طالما استمرت مصر بوقاً لموسكو في الشرق الأوسط، ومساندة الخط الشيوعي السوفيتي ضد الصين.

أما الحزب الشيوعي كحزب فإنني أعتقد أن هذه الحركة قد قضت عليه:

أولاً: لأنها لم تشرك التنظيم كتنظيم فأبعدت عناصره الجادة واتفقت مع عناصره شبه الهازلة.

ثانياً: لأنها قضت على الشعارات التي يمكن أن يعمل بها في نطاق الحياة السياسية في السودان أمثال: الحريات النقابية، استقلال القضاء، الحريات العامة. وقد أخذت الحركة من عناصره عدداً كافياً لتلوين الوضع الحاضر بلون شيوعي، وهذا يلزم الحزب إلزاماً محدوداً، ويلوث النظام تلويثاً مطلقاً، ولكنه لا يعاون الحزب الشيوعي في السير

في خطواته.. اللهم إلا أن يحدث التطور الآتي: أن يستطيع الشيوعيون العمل السري وأن يستفيدوا من مواقعهم الحالية لتصفية الأوضاع لمصلحتهم وهذا ممكن ولكن هل لديهم القيادة؟ هل توافق موسكو؟ من يعيش يرى!

إنني بعد تفكير مكرر أرى أنه من مصلحتنا ومصلحة السودان ومن مصلحة العناصر الصالحة داخل النظام لا بد أن نكون نحن في معارضة الوضع الحالي، لا معارضة دامية ولا معارضة عمياء ولكن معارضة مسببة وصلبة وعاقلة ومعقولة حتى يكون سبيل إيجاد مخرج للبلاد دائماً مفتوحاً.

لقد علمت أن السيد الإمام أرسل مذكرة احتجاج على اعتقالي، واطلعت عليها، فرأيت أن لهجتها مناسبة، وقد وجهت بكل ما أستطيع أن لا يهتموا بأمري، وأنا هنا سأقوم بعمل هام جداً وهو تحديد الإطار الفكري والنظري للبعث الاسلامي والعربي والسوداني، وهو عمل طالما تطلعت لأجد الوقت لأقوم به، وها هو الوقت أتيح. ولذا فلا داعي للانشغال باعتقالي، ولا داعي لعمل أي شيء مضاد سيعرض البلاد لفتنة والأيام كفيلة بعلاج كثير من المشاكل.

علمت في رسالة من السيد أحمد أنه يرى أن يتم تفاهم مع السلطات شبيه بتفاهم الختمية، وذلك ليطلق سراحي، وإن توجيهي هو: لا تصعيد للخلاف ولا مهادنة، بل الاستمرار في معارضتنا دون عنف ودون ضعف وترك المجال لنرى ما تفسح الأيام، هذه هي الرسالة التي أرسلتها وأرجو أن تكون قد وصلت كما هي.

ماذا عسى أن يحدث لي شخصياً؟

أن أحاكم، أو أن أطلق: وبين هذين الاحتمالين أن تتغير المعاملة أو مكان الاعتقال إلى أحسن أو أسوأ؟ أو أن يفتح باب تفاوض معي؟

أحاكم بأي تهم؟ ربما يلفق لي اتهام.

أطلق؟ وهل زالت الأسباب التي أدت لاعتقالي؟ إن كان تلك الأسباب هي سلامة الوضع فإن سلامته ستتعرض دائماً وبغير مساهمة منا إلى مشاكل. ولذا لا أرى بوضوح ما سيحدث. على كل حال علي الآتي: أن اعتبر أنني سأكون هنا لستة أشهر وأن أضع برنامجي على هذا الأساس فأدبر عيشة أسرتي والذين يعتمدون علي لمدة ٦ أشهر، وأنظم

كل شيء في القراءة والكتابة ..إلخ على هذا الأساس، وهذا أسلم لأن التكهن بما قد يحدث مباشرة من المستحيلات لأن هذا الوضع ثنائي الإرادة، كثير التردد، ولا يمكن معرفة ما ينطوي عليه غده. والمهم ما هو حكمنا الموضوعي على قيام هذا الوضع الآن)[1].

وكتب في ٤/ ٧ حول ما يمكن أن يفعله النظام للقادة السياسيين ثم تطرق لحزبهم قائلاً:

(أما نحن فلا يستطيع أن يغيرنا: لأننا لا مال عندنا فيصادره. أنا شخصياً لا أملك شيئاً يصادر والدائرة مديونة بما يفوق أصولها، وحقوق إرثي كلها في الدائرة، ولذا أنا في حقيقة الأمر أستطيع أن أواجه الموقف مشمراً ولم ارتكب مفسدة وكذلك كبار أعواني: كالأمير- أمين- دريج- عمر).

وكتب:

(أنا الآن في المعتقل. لا بد من الاعتراف أنه إذا استثنينا التضليل في البداية إن المعاملة حسنة، والسودانيون شعب حبيب فإنني منذ أول لحظة وحتى الآن لم أشعر بعداء بل شعرت من كل من قابلت وعلى كل المستويات وبمبالغة باحترام وتقدير وشعور شخصي حسن. ومهما كانت أفكار هؤلاء الساسة فقد عاملوني جميعاً وبغير استثناء وفي كل المستويات معاملات إنسانية وإسلامية وسودانية طيبة فالحمد لله.

وإنني بالرغم من الاعتقال لا أشعر بمرارة نحو الوضع الحالي، ربما لترحيبي بإزالة الفساد البائد حتى إذا كان ذلك على يد قوم أنا معهم في خلاف وأجلس داخل معتقلهم! ربما.

لقد مضى على العهد الحالي شهر فما هي أبرز سماته؟

يتسرع في فتح الجبهات، عدم وجود خطة لمواجهة الموقف، ارتباك في العلاقة الثنائية، وارتباك في وضع المجلس من القوات، محسوبيات في تصرفات رئيس الوزراء، خياليون في السياسة الخارجية، تردد في مسألة الجنوب، حملة تصفيات طابعها شخصي

(١) دفاتر مذكرات جيبت

وليس إصلاحياً، استعداء بعض أحسن العناصر المدنية والعسكرية دونما سبب واضح، التوشح برداء الشيوعية دون أن يكون للحزب تنظيم يستفاد منه مما يكسب نقمة الناس دون الاعتماد على تنظيم سياسي، ارتماء في أحضان مصر لا يمكن أن تكون له قيمة إلا لفظية واستفزازية فإنه لا تستطيع هذه الحكومة أن تزحف نحو مصر أكثر مما بلغته الحكومة الماضية ووزير خارجيتها «الشيخ علي» كان منتمياً لمصر. وعلى كل حال مصر الآن مشغولة ومحتاجة للإعانة لا في موقف المغيث.

هذا سجل شهر واحد وقد أطلت الاشاعات عن الخلافات بوجهها، وعلمت أن السيد بابكر عوض الله قد نفى اليوم خلافاً بينه وبين النميري وهذا يؤكد وجوده تماما كما أن نفي فاروق أبو عيسى أن تكون مفاوضات قد تمت معي يؤكد حدوثها الذي وقع فعلاً[1].

وكتب في ٦٩/٧/٥

(لقد تأملت أمري ملياً ورأيت أن واجبي المحتوم لهذ العام ابتداء من ٥/٦ هو:

١. اعتبار الاعتقال فرصة للعبادة والاطلاع والكتابة والتأمل في أخطاء الماضي، واعتباره اعتكافاً لازما لإصلاح أحوالي والالتزام أثناءه بالجدية والصبر والخشونة.

٢. العمل بجهد شديد على وضع الأساس النظري والفكري للبعث الاسلامي- العربي- السوداني في إطار وجودنا الأفريقي.

٣. وضع أساس لتحديد عجلة الأداء.

٤. الانطلاق منذ الآن لتجديد ما علق باسمي بحق من خطأ، والعمل حقاً وصدقاً على تنظيفه.

٥. وتحقيق الآتي في بحر العام:

أ. الهبوط بمستوى حياتي إلى المستوى العادي.

ب. الاستقامة التامة والجدية التامة.

(١) دفاتر مذكرات جبيت

ج. تحسين علاقاتي العائلية في الأسرة المباشرة والأسرة الكبيرة وإزالة ما بها من نقص.

هذا هو الواجب ولا واجب سواه.)[1]

وكتب في ٧/٧ التالي:

(قرأت اليوم تصريحات لأعضاء وفد الحكم الجديد إلى القاهرة في جريدتي «آخر ساعة»، و«روز اليوسف». وملاحظاتي أن الذي قيل في جملته حديث معقول ومقبول فليس فيه ما يدل على تراخٍ في مسألة استقلال السودان وكرامته، وفيه ما يوضح النزعة الاصلاحية التجديدية للوضع الجديد، وهذا كله حسن. وإذا صدق إحساسي فالوضع في مصر لم يطبل لضيوفه، ويبدو أن المقابلة كما عكستها الصحف فاترة خالية من الحماس، وخالية من أي هجوم على الوضع البائد في السودان بأي شكل من الأشكال. ولا شك أن أعضاء الوفد قالوا شيئاً يخص خصومهم السياسيين، ولكن هذا لم يظهر في أية صورة في الصحف المصرية، وواضح جداً أن مقداراً كبيراً من التحفظ قابلت به مصر هذا الوفد. لماذا؟

إنني كنت اعتقد منذ البداية أن مصر لن تكون سعيدة بالأوضاع الجديدة في السودان للأسباب الآتية:

أ. الوضع الجديد في السودان لا يعتمد على قاعدة واسعة، وهو وضع يحتاج لمساندات على الأقل لدعم موقفه، ومصر تحتاج لمن يساعدها في الموقف الراهن.

ب. الوضع الجديد سيُعزل من الاتجاهات العربية الأخرى، ومصر تحتاج لجسور ووسائط مع الاتجاهات العربية الأخرى في موقفها الحالي.

ج. الوضع البائد في السودان كان مريحاً جداً لمصر، فقد تجاوب معها في كل حال تجاوب ائتلاف واسع القاعدة مقبول في الأوساط العربية المختلفة، وسار نحوها بأقصى ما يمكن أن يسيره اتجاه سياسي في السودان من مودة وتضامن ومساعدة، عمل كل ما يمكن عمله دون الوحدة، والوحدة كانت وما تزال عملياً وسياسياً بعيدة المنال، ولذا فإن الوضع الجديد لن يستطيع أن يأتي لها بجديد في علاقات البلدين، ولذا فمصر

(١) دفاتر مذكرات جبيت

ستجد تقريباً نفس العلاقة بالسودان التي كانت قائمة على يد حكومة الائتلاف الماضية من وضع أكثر ضعفاً. وهو خسارة سياسية. لقد عاش النظام في مصر على الشعارات. واكتشف بعد ١٤ عاماً أن الشعارات لا تحقق عدالة، ولا تبني الاقتصاد، ولا تبني الجيش. ولذا اعترف بالخطأ على لسان رئيسه، وأبعد عدداً من القادة في كل المجالات تأكيداً لاكتشاف الخطأ وتغيير المسلك، ولكنه وجد أن النظام في سوريا ما زال يعيش بالشعارات دون عمل ويستمد قوة سياسية من التطرف. إن احتمال دخول الوضع الجديد في السودان هذا الطريق المسدود احتمال موجود، ومصر لا تريد أن تكون لها سوريا في الشمال وسوريا في الجنوب، فإن ذلك سيفسد لها الدروس والعبر التي اخذتها.

إن المشكلة التي يواجهها الوضع السياسي الحالي في السودان من حيث اتجاهاته الفكرية والسياسية وضع فريد ومحرج. ففي السياسة الداخلية لا يوجد شعار واحد لم يرفع سابقاً ورفعناه نحن. جميع الشعارات رفعناها، وعملنا عملاً واضحاً للتنفيذ، والحكومة الائتلافية التي اعقبتنا إما سايرت تلك الاتجاهات أو سكتت عنها ولكنها لم تعارضها: الحكم الذاتي للمديريات الجنوبية، الإصلاح المصرفي، الإصلاح الزراعي، الإصلاح الإداري، إصلاح الإدارة الاهلية، سودنة التجارة الخارجية، المشاركة والإصلاح العمالي، إصلاح حال المزارع، الالتفات إلى القطاع التقليدي.. إلخ. جميع هذه الاتجاهات مولوجة من ناحيتنا والرأي العام السوداني يعلم ذلك.

إذاً فالوضع الجديد لا يستطيع أن يأتي بجديد في سياسته الداخلية، ولا في سياسته الخارجية، وهذا موقف محرج جداً. الشيء الهام الذي ركزوا عليه هو قضية فساد السياسيين. وهذه أيضاً لم ينشروا رقماً أو اتهاماً أو بياناً إلا سبقناهم إليه ونشرناه بالبيانات والوثائق.

إحدى مشكلات الوضع الحالي الكبرى: فقر دم في الفكر السياسي.)[1]

وفي ٦٩/٧/١٦ كتب التالي:

(علمت اليوم أن السيد أحمد وآخرين لم توضح لي أسماؤهم اعتقلوا. لماذا؟ لا أدري ولكن أغلب الظن بسبب وشاية من بعض الناس فآخر خبر سمعته عن السيد أحمد أنه

(١) دفاتر مذكرات جيبت بتاريخ ٧ يوليو ١٩٦٩م

يريد أن يعمل كل ما في وسعه من تفاهم ليحصل على إطلاق سراحي، وهو حريص جداً كالعادة على مسائل السمعة والكيان لأنه يهتم بأوضاعنا التقليدية واستمرار الاحترام النابع عنها اهتماماً كبيراً.

هذا وقد كان توجيهي أننا لا نتفاهم تفاهم مهادنة، ولا نصعد الموقف تصعيد صدام بل نستمر في موقف معارضين على أساس ومبدأ، طارحين دائماً احتمال إيجاد مخرج سلمي للبلاد. فماذا حدث لتغيير هذه الصورة؟ لست أدري.

إن الوضع الجديد بمواجهته لنا سينشغل عن كل أداء آخر، ويثقل في كاهل السودان لأنه لا يعيش سياسياً إلا على منجزاته ولكن هل يسمعون مثل هذا النصح؟

لا اعتقد بل سيحاول الحاقدون من كل اتجاه استغلال الأداة الجديدة للانتقام كل من خصمه وخصومه وبالوشاية والنميمة والخبر الكاذب سيجد الوضع نفسه مشغولاً لا بأعداء السودان ولا بقضايا السودان ولا بالفاسدين من السياسيين ولكن بمطاردة الرجال الذين لا يعرفون الانحناء، ومطاردة الخصومات الشخصية للمقربين الذين التفوا حول الضباط. هل خطر ببالهم أن هذا يجهض عمليات الإصلاح؟

أرجو أن يتمكن رجالنا جميعاً من تمالك أعصابهم والصمود مع الصبر، فلا يصدر منهم أي تصرف به اندفاع أو حماقة. اللهم ألهمهم صبراً وبروداً وتماسكاً.

في بعض الأحيان يصح قول القائل: إذا صبر القاتل لمات المقتول. علينا أن نصبر ونصمد وننتظر، وبالله التوفيق)[1].

وفي ٦٩/٧/٢١ كتب:

(يمر اليوم الخامس والأربعين لاعتقالي اليوم. وإني لأحمد الله أنني استفدت فائدة عظيمة من هذه الأيام. لقد تمكنت من تنظيم قراءاتي واطلاعي للفراغ من كل برنامج القراءة الذي كنت سائراً فيه فلم تساعدني ظروف الحياة العادية، واستطعت أن أنظم عباداتي وأعمقها، واستطعت أن أنظم رياضتي البدنية واتخذت من جميع مهمامي برامجاً يومياً رتيباً.

(١) دفاتر مذكرات جبيت في ١٦ يوليو ١٩٦٩

لم أكن اتصور أنني في المعتقل سأجد نفسي محتاجاً لمزيد من الوقت والزمن في يومي. المتوقع أن يحاط الشخص بالملل والسأم. ولكن هذا ولله الحمد لم يحدث فأنا الآن من ناحية شخص سعيد جداً بما أتيح لي من مجال، وما أنجز من أعمال وقد وضعت برنامجاً لستة أشهر ويسير البرنامج بانتظام وتوفيق.

والحقيقة هي أن من له هدف وواجب وإيمان لا يمكن محاربته، فهو يجد الجليس والأنيس في خلوته. ما أروع الإنسان. بعضنا يشعر بالعزلة وهو وسط الأهل والجماعة وبعضنا يشعر بالأنس وهو في عزلة حبسه.

ولا يخامرني القلق إلا من ناحية مسئولياتي العائلية والوطنية ولكن حتى في هذين المجالين فإن الفرصة الحالية في الخلوة الحالية مجال لتعمير ذاتي، وتغيير الأخطاء في مسلكي، وتعميق وجودي الفكري والعاطفي، وهذا إذا وفقني الله إليه سيجعلني شخصاً أفضل وذاتاً أحسن، وهذا يفيدني ويفيد غيري من الناحية الخاصة والعامة)[1].

ملاحظات في جبيت

ويبدو أن هذا الرضا لم يكن على طول الخط، ففي دفتر آخر بجبيت، في وقت ما قبل حريق الأقصى في ٢١ أغسطس ١٩٦٩، وجدته يكتب تحت عنوان «السجن» الآتي:

١. الاضطهاد له وزن يقع ثقيلاً على النفس.

٢. الوقت يصبح طويلاً رتيباً ويحاول الإنسان بكل ما أوتي من قدرة أن ينوعه فيؤرخ ويحدد أشياء تافهة.

٣. مواعيد الأحداث بانتظامها ورتابتها تصبح مبعث غيظ وكدر.

٤. ساعات طوال تتملك الشخص أثناءها وحشة النفس.

٥. آلام الوحدة.

٦. غياب المناظر العادية: الناس، الأطفال، الحيوانات، له أثر موحش.

٧. الخواطر التي يفرضها المصير المجهول.

(١) نفسه بتاريخ ٢١ يوليو ١٩٦٩م

٨. أقل إشارة فأل تملأ الأفق تفاؤلاً، والعكس.

٩. يجوّد الإنسان بحثه في أغوار نفسه بالتأملات والتفكر.

١٠. تصفو العبادة وتنتظم وتحلو.

١١. الطعام، اللباس، النظافة..الخ، جميع أوجه النشاط الإنساني تفقد الطابع الاجتماعي فتفقد معاني هامة للغاية.

١٢. مأساة الإنسان أن علمه تقدم وعقله نضج، ولكن عاطفته ما زالت في عهد طفولتها. لا شيء يكشف هذا التباين مثل حالات العسرة وساعات النكبة!!

كل ما يمر بي يزيد من قوة إيماني في جودة معدن الشعب السوداني.

الطباخ لا يتكلم، لكنه ما أطيبه حركاته تغني عن كلام.

نظام السجون في السودان:

١. كادر السجانة يحتاج لمراجعة.

٢. هل السجناء معاملون معاملة عصرية؟ من ناحية العمل. من ناحية الإصلاح الاجتماعي. من ناحية المأكل والملبس والمرقد؟

٣. ما هي وظيفة السجون: التأديبية؟ الإنتاجية؟ الإصلاحية؟ الإدراية؟ يقدم بيان ونقد للائحة السجون.

٤. هناك عدد كبير من المترددين للسجون أطلقوا وعادوا ٣٠ و٤٠ مرة. هل هناك جدوى في المعاملة الحالية لأمثالهم؟ علمت أن بعض المساجين (يعامل لدى خروجه) باعتباره سيعود قريباً، هذا وبعض هؤلاء مكتوب في قائمة سوداء عند البوليس، فهم لا يكادون يخرجون ويراهم البوليس في أي مكان وحتى إذا لم يرتكبوا أي جريمة، البوليس لا يؤمن بحرية أمثال هؤلاء فيعودون إلى السجن. هؤلاء السجناء أصبحوا يعلمون لوائح ونظم السجن أكثر من معرفة الموظفين في السجن!!

٥. كالعادة في جميع أجهزتنا السودانية المسلحة ألاحظ أن العمل الأكثر مشقة وإرهاقاً يقوم به رجال الصف. !The PM governs and the Queen shrines! لا بد

من علاج مسألة توزيع الاختصاص والعدالة في المناصب بين رجال الصف والخريجين. العالم الثالث كما قال ريني ديمنت يعاني من بهاظة تكاليف طبقة جديدة (النخبة) وقلة إنتاجها الحقيقي. هذا يعكس المشكلة في عالم الهندسة وغيره.

ملاحظات عن مدرسة جبيت:

١) المدرسون ضباط صغار وليسوا في مرحلة تعليمية أعلى من الضباط الذين يدرسونهم، هذا خرق لقاعدة تعليمية حكيمة.

٢) لا توجد المعدات لدراسة الحرب الحديثة. فلا طيران ولا بحرية ولا أسلحة ثقيلة، دبابات..الخ. ولذا فالتعليم شبه نظري. والغريب أن كثيراً من الضباط الذين يدرسون كورس جبيت، مثلاً في التكتيك، قيادة بلتون، يرسل لبعثة خارجية لدراسة نفس الكورس في الخارج. اعتراف بأن الكورس الأول غير مجدٍ أم ماذا؟

٣) حياة الضباط في جبيت فقيرة للغاية، ولذا فهم في الغالب في حالة تعاسة شديدة.

٤) المكتبة بائسة جداً والموقف الاجتماعي للضباط أشبه بالسجن.

٥) الضباط الذين يعملون في المدرسة يبقون عامين أو نحو ذلك، ولكن ضباط الصف والجنود الذين يعملون في المدرسة يبقون بصفة دائمة في المنطقة. هذا ظلم ولا بد من وضع نظام أكثر عدلاً. على أن مساكنهم حسنة.

الشخص الذي سكن منزل القائد في جبيت في مرحلة ما قبل غندور مستهتر فقد بني حوضاً للسباحة!! في شكل ❤ ومسبطة في شكل ♠[1] وهما شكلان من الكتشينة. ولا بد أن أعرف من هو؟ والبيت في جملته باذخ البناء.

ملاحظات: نسبة الأمية في الجيش لا يعلمها الضباط بل لم يخطر ببالهم السؤال عن الموضوع. فبعض من سألت قال ٢٠٪ وبعض آخر قال ٨٠٪، وأنا كنت أقدر ٦٠٪، فمن يسعفنا بالحقيقة؟)[2] أ.هـ

(١) رسم الحبيب الشكلين والشكل الأخير رسمه مرتين فشطب المحاولة الأولى، ولست متأكدة هل هو هذا الرمز أم الشيريا؟ والتعليق الضروري أن الحبيب الإمام لا يجيد الرسم كما ظل يكرر عن نفسه وأنه كان يعاني صعوبات حتى في رسوم مادة العلوم إبان الدراسة.

(٢) مذكرات دفاتر جبيت في ٢١ أغسطس ١٩٦٩م.

رحيل الأزهري وحجود الانقلاب

كان الزعيم الأزهري معتقلاً منذ ليلة الانقلاب حيث أحاطت بمنزله قوة عسكرية، وتم التحفظ عليه يومين ثم أحيل بعدها لسجن كوبر، وكان يشكو من مرض القلب، وفي ٢٠ أغسطس ١٩٦٩م توفي شقيقه، وبعد تردد سمحت له السلطات بحضور الجنازة، ثم أصيب بعدها بنوبة قلبية فأحيل للمستشفى حيث توفي في ٢٦ أغسطس ١٩٦٩م.. الحكومة المايوية الرعناء تحفظت على خبر مرضه، ثم أذاعت خبر وفاته من راديو أم درمان كالتالي: (في صبيحة هذا اليوم توفي إسماعيل الأزهري المدرس في المدارس السودانية)[١]. لم يرد أي ذكر لعمله السياسي والوطني ولا المناصب التي شغلها ولا أنه رافع العلم.

قال السيد غراهام: وقد عملت الحكومة كل ما استطاعت لمنع السودانيين من التعبير عن احترام الفقيد يوم جنازته، حتى أنها أوقفت القطارات خارج مدينة الخرطوم، كما قيدت حركة الشاحنات الكبيرة وحافلات الركاب أيضاً، ومع كل ذلك فإن هذه الإجراءات جميعها لم تستطع أن تمنع نصف مليون إنسان من الانتقال ولو على ظهور الحمير للوفاء بحق الفقيد الكبير[٢].

نعم، برغم ما فعلوه خرجت الجماهير تحيي الزعيم الأزهري، وقال في ذلك المرحوم فاروق البرير قصيدة غاضبة:

يا رفاقي..

سوف أدعو اخوتي الأصلاء

من قلب البوادي والحواضر

اتركوها لم تعد أرض الأكابر

إنها أرض لينين وناصر!

وأخي!!

(١) توماس، سابق، ص ١٢٠، وانظر ايضا نادر الفضلي، سودانيز أون لاين

(٢) توماس، سابق ص ١٢٠

القادم من أرض القياصر

والشعارات التي رُفعت ستائر

خلفها الجاسوس يلبس

ثوب ثائر

خلفها العملاء أبطالٌ نواضر

خلفها السودان يسجنه العساكر

..

يا رفاقي

جهلهم بالشعب يبدو كالصباح

بالإرادات التي ما فلها

يوماً سلاح

ما هزها الرصاص

أو بيض الرماح

ذرت عزائمها الطغاة

مع الرياح

ذهبوا ليبقى الشعب

مرفوع الجناح

..

يا رفاقي

هل رأوا يوماً تطوقه الحشود؟

والسيل جمهور يدمدم كالرعود؟

obeikan.com

لا قهر يجمعه ولا قسر الجنود

لا نشر.. لا مذياع.. لا دجلٌ يقود

الحشد خلف النعش تتبعه حشود

والألف فوق الألف يكتسح الحدود

والشعب موجٌ هادرٌ بين السدود

في رأسه اسماعيلُ حيّا للشهود

حياً يحي الجمع من سفر الخلود

ويسير في موج ليهزأ بالطغاة وبالجمود

ليميت أحياءً ويحي ميتاً بين اللحود

ما طاق سوداناً تكبله السلاسل والقيود

يغشاه جهل مسلح بالطيش أقسم أن يسود

رحم الله الأزهري والبرير في الخالدين، كم دهشت لشعر المرحوم فاروق القوي، ولكنه محبوس في الأضابير[1].

والحقيقة إن تصرف قادة الانقلاب كان غريباً تجاه القادة السياسيين بالتفرقة بينهم على أسس غير معلومة، ويبدو كانت متأثرة بمواقف السيد بابكر عوض الله وأحكامه بل ومشاعره تجاه الساسة.. وكان مثلاً لا يحب الأزهري وهي كراهية صمدت أمام الزمن حتى إنه في مناسبة تكريمية حديثة ندت منه مشاعر الكره تلك فالتقطها من حوله.

أما موقف الانقلاب من السيد محمد أحمد محجوب الذي كان رئيساً للوزراء متربعاً على السلطة التنفيذية في نظام برلماني، وبرغم تقديمه للاستقالة إلا أنه ظل آخر رقم حيث لم يتم إعلان استقالته ولا تنصيب بديل له، المحجوب بأي مقياس موضوعي هو الأحق بالبطش كرمز للنظام الذي أطاح به الانقلاب، ولكن نجد أنه تم التحفظ عليه

(١) برتني ببعض القصائد ابنته عائشة، وأدعو الله أن يوفق مساعيهم لنشر ديوانه.

منزلياً لفترة قصيرة ولم يسجن، بل سمح له بعدها بالسفر للقاهرة بحسب طلبه. ومنها توجه إلى لندن، ولم يُسمع له بعدها بموقف سياسي حتى وفاته عام ١٩٧٦م، ولكنه في تلك الفترة ألف كتابه (الديمقراطية في الميزان) مطففاً بميزانها ومخففاً من شأنها، ومع أنه لم ينخرط ككثير من المثقفين في الانقلاب بل عرف عنه عدائه للعسكر، إلا أنه لم ينضم للجهد المحموم حينها لإرجاع الديمقراطية.

أما السيد الصادق المهدي الذي لم يكن يتقلد أي منصب في الحكومة بل كان ضد الوضع القائم قبل الانقلاب، لكن قابله الانقلابيون بكل أشكال الفتك بدءاً بمحاولة الاغتيال الأولى ثم الاستدراج خداعاً ليأتي الخرطوم ويعتقل في معتقلات انفرادية، ثم خططوا لاغتياله خمس مرات مثلما سوف تكشف الأوراق.

محاولتا التصفية والاغتيال بعد جبيت

قال السيد الصادق [1]:

(بينما أنا معتقل في جبيت فكر الانقلابيون في أساس لتجريمي وطبعا لم يجدوا شيئاً في سلوكي السياسي يدينونني به، لذلك بدأوا في تسريب كلام وشائعات عن محاولة انقلابية عنصرية مرتبطة بالسيد فيليب عباس غبوش والصادق المهدي، ثم صرحوا رسمياً بأن أجهزتهم كشفت هذا الانقلاب العنصري المدعوم من أمريكا، وأعلنوا أن الأمريكان أرسلوا لي مسدساً في شكل قلم لاغتيال بابكر عوض الله رئيس الوزراء، ودعا وزير الداخلية فاروق عثمان حمد الله إلى مؤتمر صحفي وذلك في أول سبتمبر ١٩٦٩م[2]، وفي هذا المؤتمر قال إن الصادق المهدي يريد أن يقوم بانقلاب عنصري ويغتال رئيس الوزراء، وهذا الاتهام عقوبته الإعدام ونحن سنحاكمه ونعدمه. كل هذه الحكاية قصد منها تجريمي ثم إعدامي.

هذه طرفة من طرف ذلك العهد العجيب، ولكن بعد مرور سنوات، في عام ١٩٧٨م

(١) من حلقات الأخبار التوثيقية معه حول تجاربه في السجون والمنشورة في أغسطس ٢٠١١م، بتصرف

(٢) الأرجح أن يكون ذلك المؤتمر الصحفي في أواخر يوليو ١٩٦٩م. فمن المؤكد أنه حتى ٢١ يوليو كان السيد الصادق في جبيت. ولكنه شهد جانبا من يوليو في بورتسودان (نجد في مذكراته ببورتسودان إشارة للحر في يوليو وأغسطس في بورتسودان).

وبعد المصالحة كنت في لقاء مع نميري وأراد أن يحكي لي قصة تلك المؤامرة بصورة تثبت براءته وإدانة الآخرين، قال لي: (المؤامرة عليك دبرها الروس ووزير الداخلية فاروق، وأنا لم أكن أعرف الطرف الأجنبي إلا بعد أن كشفت على المسدس فوجدت فيه قطعة خشبية من خشب لا ينمو إلا في سيبيريا، من ذلك استنتجت أن العنصر الأجنبي هم الروس!!) لا يفوت علي فطنة القارئ أن وزير الداخلية لا يمكن أن يمضي في هذا الشأن إذا لم يوافق عليه رئيسه، وأن مسألة خشب سيبيريا هذه أضحوكة. فقلت له لماذا لا تعلن هذه الحقائق للرأي العام؟ قال سأفعل ولكن تمر على الثورات ظروف كهذه هي بعض ثمن الثورة!

إن جعفر نميري عندما يتحدث بالسليقة يقول أشياء غريبة تتركك متسائلاً أحقا هو يصدق هذه السخافات؟ أم أنه يستخف بعقل المستمع؟ ففي ذات يوم اعتدى جماعة أيلول الأسود على ضيوف في السفارة السعودية في الخرطوم ١/٣/١٩٧٣م وهناك قتلوا دبلوماسيين، أمريكياً وبلجيكياً، ونتيجة لذلك الحادث أعلن نميري حملة ضد المقاومة الفلسطينية وقال سأجعل أيامهم كلها سوداء لا أيلول وحده، هذا ما أعلنه، وذات يوم قابلت نميري فقال لي: (لقد كنت جاداً عندما قلت إننا سنجعل كل أيامهم سوداء، ففي بيروت حيث يعيش عدد كبير من الفلسطينيين البوابون كلهم سودانيون وسوف نسلطهم عليهم وسوف يجعلون أيامهم سوداء)! صدق أو لا تصدق!!.. هذا المستوى من الفهم هو الذي جعل المستشار الألماني السابق هلمت شمت[1] يقول لي: أنا لا أستبعد وجود حكام عسكريين في بلاد العالم الثالث فهذه بعض مظاهر التخلف الاجتماعي، ولكن الذي أدهشني هو كيف وصل شخص بمثل قدرات نميري العقلية ليصبح الشخص الأول في أي نظام؟!!)[2]

وحول محاولة الاغتيال الثانية بعد جبيت قال السيد الصادق:

(أمرت السلطات بتحويلي من منزل كنت معتقلاً فيه في جبيت إلى سجن بور تسودان،

(١) هلمت شمت (ولد٢٣٢ ديسمبر ١٩١٨م) Helmut Schmidt سياسي ورجل دولة ألماني عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي، شغل عدة وزارات، وكان المستشار لألمانيا الغربية في الفترة ١٩٧٢-١٩٨٤.

(٢) من كتاب الفكاهة ليست عبثا

وعلمت أن تعليمات صدرت بتصفيتي في الطريق إلى بور تسودان ولكن التعليمات وصلت بعد وصولي للسجن)[1].

تعليق..

حاول الدكتور محمد علي جادين وهو يؤرخ لهذه الفترة في كتابه (تقييم تجربة الديمقراطية الثالثة في السودان) أن يقول إن العناصر الشيوعية والديمقراطية داخل منظومة مايو ومجلس ثورتها كانت مختلفة مع جماعة نميري والقوميين العرب منذ البداية حول مسألة الحريات، وإنهم نادوا بها[2].. اعتقد ينبغي الاعتراف بأن تلك العناصر أيدت مايو في البطش وطربت لأعمالها في التنكيل بالآخرين، اللهم إلا إذا كانت المناداة بالحرية المقصودة لعناصر يسارية أو تتفق معها في الرؤى.

لقد سيرت منظومات الحزب الشيوعي الشبابية والعمالية المسيرات المؤيدة لضرب الجزيرة أبا وكانوا يهتفون (لا تحفظ بل إعدام) مطالبين بإعدام السيد الصادق المتحفظ عليه حينها في شندي وفقما أعلنت مايو. وقد سعوا، ومنهم كما رأينا السيد فاروق حمد الله، الذي عد ضمن العناصر المذكورة، سعوا لتجريم ملفق للحبيب ومن ثم إعدامه.. بل أخبروا الشعب عن محاكمة معلومة النتيجة سلفاً في دك لأبسط قواعد العدالة. هذا بدون إنكار الدور الإيجابي الذي لعبه السيد فاروق يوم الانقلاب وفق رواية السيد محجوب برير بحرصه على عدم إهراق الدماء وتصفية السيد الصادق هو والسيد بابكر عوض الله، لكنهما وفق شهادته غيرا الموقف بعد علمهما بانتقاده للحلف المدني للانقلاب.

وكنت استنكرت أقوالاً حديثة لأستاذنا الدكتور عبد الله علي إبراهيم فيها ذكريات تلك الأيام، في مقدمة كتاب عن الشاعر عبد الرحيم أبو ذكرى رحمه الله، تند عنها النشوة بعد ضرب الجزيرة أبا، وحينما قلت له كان الأحرى أن يتم التراجع عن تلكم الأيام وذهنيتها الإقصائية، رد بأنه لم يعن احتفاءً بالتقتيل ولكنهم كانوا اطلعوا على مضابط دائرة المهدي وانتقدوا علاقات الإنتاج في مشاريعها وقد وجدوا فيها برأيهم ضيماً على

(١) نفسه

(٢) محمد علي جادين، الدكتور، تقييم تجربة الديمقراطية الثالثة في السودان.

العمال والمزارعين.. الشاهد إن دراسات لاحقة رأت غير ذلك[1]، ولكن مهما كان حول علاقات الإنتاج ونقدها فإنها لا تبرر ما حدث، ولو صح ما ذهبوا إليه فإنه ما من انتهاك أبلغ من سلب الحق في الحياة وقصف المدنيين بالطائرات ودفنهم أحياء بالكراكات، مثلما سوف نصف.

إن الجرائم البشعة التي هلل لها بعض اليسار والعناصر الديمقراطية بتعبير جادين في تلك الفترة تؤكد بجلاء أنهم إن كانوا يطالبون بالحرية فقد فعلوا بشكل انتقائي، والحريات والحقوق لا تتجزأ: الحريات ينبغي أن تكون للجميع.

المطلوب خطوة جريئة كالتي قام بها شاعر الشعب الراحل محجوب شريف، والذي رفع لافتات تنقض شعره لمايو مكتوب عليها: (لا حارسنا لا فارسنا)، واعتذر للشعب السوداني، كم كان كبيراً، وبلادنا تحتاج مواقف المراجعة الشجاعة هذه، لأنها تغسل الجراح وتهيؤها للالتئام.

هل يستطيع أحد أن يفسر كلمات المرحوم السيد عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي حينها التالية: (إن تصاعد الصراع السياسي والطبقي في بلادنا والذي اتخذ من الجزيرة أبا وودنوباوي مسرحاً له ليس أمراً عابراً لأننا قد استقبلنا بالفعل نقطة في تطور الحركة السودانية. نستطيع أن نقول بأنه قد وجهت ضربة قاضية للتنظيم المسلح الرجعي في بلادنا، الضربة أنزلت بمجموع قوى اليمين في بلادنا ضربة ساحقة

(١) يقول الإمام الصادق المهدي في مقدمة كتاب يسألونك عن المهدية وهو يشير لاتهام الإمام عبد الرحمن المهدي باستغلال العمال والمزارعين في مشاريعه: (أما مسألة استغلال العمال فقد تطرق لأمرها الباحثون، وأوضحوا كيف أن هؤلاء جاءوا إليه باعتباره ابن المهدي ليقاتلوا معه. ولكنه صرف جهدهم لعمل مدني أفادهم. وفي مرحلة كانت رعايته لهم أبوية، ثم صاروا مزارعين. كمزارعين كان نصيبهم محدداً بقانون لائحة سحب مياه النيل. وفي المرحلتين كان يصرف عليهم أكثر من الاستحقاق القانوني. ولكن الفرق كان في أنه رفع همتهم ودربهم وأدار عملهم بطريقة رفعت إنتاجيتهم بصورة لا تقارن مع غيرها. صحيح جمع ثروة ولكنه جعل دائرته منظمة إنتاجية اقتصادية ذات أهداف اجتماعية بحيث صرف على الصحة، والتعليم، والمساجد، والبعثات، ونافس الحركة الاتحادية الممولة من الدولة المصرية لنصرة الدعوة الاستقلالية.. نعم جمع المال بكفاءة عالية، ولكنه صرفه صرف من لا يخشى الفقر، حتى أنه يوم وفاته كانت قيمة أصول ثروته تساوي الديون عليها.) الصادق المهدي، يسألونك عن المهدية، الطبعة الثالثة ٢٠١٥م.

وأضعفت فعاليتها وقدرتها. إن أي تقليل من شأن ما جرى يؤدي إلى التقليل أيضاً من فرص العمل الثوري وممكناته في هذه الظروف وإن الضربة التي وجهت للتنظيم تفتح السبل أكثر من أي وقت مضى نحو حركة الجماعة الثورية بصورة حاسمة وفي مستويات أعلى الدرجات مما كانت عليه قبل معركتي أبا وودنوباوي، كما تؤدي إلى تعاظم دور الحزب الشيوعي السوداني في الحياة السياسية)[1]. هل في هذا دعوة للحريات أم احتفاء بنهر الدماء الذي أساله النميري؟

في السجن الأسود ببورتسودان

حينما كان السيد الصادق ببورتسودان أتيحت له بعد فترة من الإقامة بالسجن فرصة زيارة الأسرة، وكانت أمانا، حفية وسارا، تتبادلان في زيارته فتقيمان لدى الخال بشير عبدالله جادالله الذي أقام في بورتسودان عقودا وتذهبان لزيارته بين الفنية والأخرى، وفي الإجازات كان يصحبهما الأربعة الكبار: أم سلمة، ورندة، ومريم، وعبد الرحمن. وربما زار بعضنا ولكني لم أذهب لبورتسودان أبداً، ففي بيتنا كان هناك اهتمام كبير بالتراتبية العمرية والأربعة الكبار كان لهم وضع مميز بالنسبة إلينا نحن الأصغر.

كتب السيد الصادق حول تجربته في سجن بورتسودان:

(وصلت إلى سجن بورتسودان، وكان يسمى بالسجن الأسود لأن حوائطه سميكة جداً وطويلة جداً، ولا تدخله الشمس. وضعت في زنزانة (حبس انفرادي)، وحتى في بورتسودان استمرت العزلة المفروضة علي، إلا أنهم بعدها تخلوا عن فكرة المؤامرة العنصرية التي حاولوا إلصاقها بي لاغتيال شخصيتي ومن بعد ذلك أُغتال في الطريق، كما أنهم تخلوا عن المحاكمات.

وبقيت في سجن بورتسودان، ولم يسمحوا بالزيارة نهائياً في أول الأمر وبعد حين تغيرت الأمور قليلاً وسمحوا بزيارات أسرية على نطاق ضيق جداً. طالبت بمطلب واحد استجابوا له وهو ألا يحجروا على كتبي ويسمحوا لي بها. ومع الزمن تكونت عندي مكتبة كبيرة جداً في السجن.. وسارا رحمها الله أصبحت فيما بعد حلقة الوصل بيني وبين الخارج، وكانت الشخص الذي يوفر لي الكتب. كانت رؤية النظام في الاستجابة لطلبي أن يعزلني تماماً عن

(١) قسم السيد، سابق ص ٢٢٤

خارج السجن ليشغلوني بالفكر، فكانوا يسارعون بتوفير أي كتب أطلبها. ومن ذلك الوقت بدأ أهم مشوار تثقيفي وفكري في حياتي على الإطلاق.

خلال فترة السجن تكونت عندي مكتبة ضخمة جداً واستطعت أن أطالع ثلاثة آلاف كتاب في مختلف فروع المعرفة. وتوفرت لي خلوة خلال حبسي منفرداً بلا زوار، فكانت الفرصة لتكوين أهم أفكاري حول القضايا الفلسفية والفكرية والقضايا السياسية، وفي كل شيء.

ثم سمحوا لنا بالزيارات بعد ستة أشهر من السجن أي في أواخر ١٩٦٩ م وأوائل ١٩٧٠ م، وسكتوا عن المحاكمات والاتهامات.)[1]

من مدونات بورتسودان:

كتب السيد الصادق في بعض دفاتره بالسجن:

(مضايقات خاصة:

- *الحر- بورتسودان- يوليو- أغسطس.*
- *الراديو، عالياً ويظل حتى منتصف الليل.*
- *الغراب: كثرته- قبحه- صوته. هذه (بونص) لسجناء بورتسودان.*

كيف يمكن لإذاعة تتكلم باسم حركة تدعي تأييد المثقفين، وتدعي التقدمية، أن تكون فارغة إلى هذا الحد؟ لا أدري!!

١- معظم أخبارها تصريحات لأشخاص.

٢- تعطي مجالات لثقلاء يدلون بمطولات في (الوعظ) السياسي يرددون ببغائياً عبارات لا علاقة لها بالبيئة السودانية.

٣- الغناء المنحل كما هو لم يتعرض لإصلاح.

٤- لا أسمع تعليقاً ذكياً في أي موضوع.

(١) الحلقات التوثيقية في صحيفة الأخبار حول ذكريات السجون. أغسطس ٢٠١١م

٥- الأناشيد، ما عدا ما يكرر من أناشيد أكتوبر، سخيفة.

٦- كأن السيد محجوب عثمان قرر أن «يكاوي» الشعب السوداني بهذا الإزعاج من إذاعة أم درمان، حتى بدا لي أن أسمي هذه الإذاعة أنيانيا: الحشرة السامة.

٧- أما الطريقة التي تذاع بها الليالي والاجتماعات السياسية فتتساوى في العامية مع ما كان يفعله بعض الساسة.

٨- وقت الإذاعة العام تشغله منظمات: اتحاد نقابات السودان، الاتحاد النسائي، اتحاد الشباب السوداني، يا ترى هل يعلم الحاكمون حقيقة هذه المنظمات؟ بعضهم مؤكد يعلم. والأذان يحدث مرة ومرات لا يحدث، لماذا؟

الإذاعة تكرر كتابات بعض الصحفيين الذين إن قورن ما يقولون بما كانوا يقولونه قبل ٦ أشهر أو عامين أو ثلاثة لاتضح معدنهم.[1]

حريق المسجد الأقصى ٢١ أغسطس ١٩٦٩م

دفاتر السجن مليئة بالملاحظات والمتابعات للإذاعات العالمية والتعليق على الأحداث، ولكني انتخبت من بينها تعليق السيد الصادق على حريق المسجد الأقصى لأنه فيه وعلى غير العادة تحدث عن مشاعره، ونحن نحتفي بكل ثقب نراه لنطلع على دواخل الصادق، كيف كان يفكر، ويشعر؟ كتب الصادق:

(سمعت نبأ حريق المسجد الأقصى. بكيت بكاءً مراً. لم أبك لفداحة المصيبة فلها في فداحتها أقران في التاريخ القديم والجديد أحزنتني، ولكن ليس إلى نفس القدر. فالحجاج هدم الكعبة، والبعث قصف المسجد الأموي في دمشق. ولكن حادثة المسجد الأقصى هيجت كوامن الشعور بالذل والهزيمة التي ألحقتها إسرائيل بكياننا ووجودنا. إذا مات لك عزيز في أسر فإنك تحزن حزناً مضاعفاً بصرف النظر عن أسباب الوفاة: طبيعية أم غير طبيعية. فالأسر في حد ذاته حالة غير طبيعية.

---

(١) مدونات بدون تاريخ. والحقيقة ينبغي إجراء مزيد من البحث للتأكد من التواريخ. فبينما يؤرخ السيد الصادق للمؤتمر الصحفي الذي عقده السيد فاروق حمد الله بأنه أول سبتمبر ويفترض أنه بعده انتقل إلى سجن بورتسودان نجد في مدونات سجن بورتسودان هناك إشارة للحر في يوليو وأغسطس. مما يشير إلى أنه حضر جانباً من يوليو في بورتسودان.

وبعد أن حلل وضع اليهود ودوافعهم والسياسة العالمية واصل متسائلاً:

والآن فما هو موقف حريق المسجد الأقصى؟ لقد استمعت إلى الإذاعات العربية: القاهرة، عمان، أم درمان، دمشق. ولم أستطع الاستماع لبغداد والرياض ودول المغرب.

ما سمعته من هذه الإذاعات، يا للهول، أضحكني! وهذا شعور لم أفهمه. ماذا يضحك؟

إن الذي أضحكني هو أنني شعرت شعوراً عجيباً بأن التعليقات غير جادة، وإن عدم الجدية واضح لدرجة مفضوحة. فكل الذي حدث هو تصعيد الحملات الكلامية ضد إسرائيل وتأييد الدعوة لمؤتمر قمة عربي!!

يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع!

المؤسف حقا أن العالم العربي اليوم بين نوعين من الحكم. حكم تقليدي جاهل وعاجز وخائف من الانقلاب وحكم ثوري فاشل معتمد على فئة شعبية ضئيلة فاقد الثقة في نفسه بأنه غير شرعي. لا بد من ثورة عربية جديدة تغير هذه الوجوه العاجزة.

نحن مفتقرون إلى ثورة تتمتع بالعقل وبالأصالة لتغير الواقع العربي الحالي، وهذا لا بد أن يظهر على الصعيد الفكري قبل الصعيد السياسي. ولكن متى يكون ذلك؟ لا أدري. ولكن حتى يتم ذلك فإننا سنظل نعبث وستظل تصرفاتنا تثير الضحك!)[1]

ومضى السيد الصادق يتمنى مواقف على زعماء العرب يومها فيتساءل: ماذا لو كنت حسينا؟ (يعني الملك حسين ملك الأردن رحمه الله وكانت تجمعه به صداقة كما مر) ثم يجيب، وماذا لو كنت جمال عبد الناصر؟ وهكذا. وأنت تلاحظ أن الصادق يناقش الورق، ويحاوره، ولعل الورق أصدق أصدقائه لأنه أدومهم، فقد صادق وزامل كثيرين منهم من غيبهم الموت أو السفر أو تنكّر للصداقة، وظلت الدفاتر هي صديق الصادق الوفي وأكثر من يبث له همومه ويشاركه أفكاره!

***

(١) مدونات سجن بورتسودان، ٢١ أغسطس ١٩٦٩م.

في سجن شندي أكتوبر ١٩٦٩م

نقل السيد الصادق بعد ذلك إلى معتقل في شندي ويرجح أن ذلك في أكتوبر ١٩٦٩م، ففي أوائل قدومه لسجن شندي زاره كل من فاروق حمد الله ومأمون عوض أبو زيد في يوم الجمعة ٣١ أكتوبر ١٩٦٩م، وهذه الزيارة سقطت من ذاكرة التاريخ حتى وجدنا ملخصاً لمحضر اللقاء سجله السيد الصادق في ١ نوفمبر ١٩٦٩م، ولأنه كما قلنا لقاء ضائع من مضابط التاريخ فسنورده كاملا:

(زارني الرائدان فاروق عثمان حمد الله ومأمون عوض أبو زيد ومكثا حوالي ساعة ونصف وبعد المجاملات والتعليقات العامة دار الحديث الآتي:

فاروق: رأينا أن نزورك ونتحدث معك ونسمع ما تريد أن تقول إن كنت تريد أن تقول لنا شيئاً.

الصادق: لقد كنت في الماضي أريد أن أنبهكم إلى الحملات الإعلامية التي أصدرت حكماً علينا في الاتهامات غير الصحيحة التي اتهمنا بها، وهذا المسلك به سبقٌ لنتائج التحقيقات ويشجع الفتنة ولكن هذا المسلك توقف منذ حين.

فاروق: لقد كانت تلك الاتهامات نتيجة أقوال بعض الناس، وتناولها البعض بالطريقة التي حدثت نتيجة الظروف الخاصة المحيطة بذلك الموقف، ونحن كثيراً ما نسمع ما يؤذينا أيضاً والظروف الآن مختلفة.

الصادق: ما دمتم تريدون معرفة رأيي الآن فإنني سبق أن تحدثت مع السيد النميري وأوضحت له أننا قد قمنا بإدانة الأوضاع التي كانت تسود البلاد، وإننا لذلك لا نريد العودة إليها، وإننا نرى ضرورة إجراء إصلاحات فورية في البلاد، ولكننا نعارض الشيوعية لأنها تناقض عقيدتنا، ولأنها عبودية لدولة أجنبية. وذكرت للسيد نميري ما نعتقد أنه سيحقق الإصلاح الثوري في إطار قومي يمكن أن يقبله الناس. ولكن ذلك الحديث مع أنه كان في جو من التفاهم لم يثمر وأدى إلى الاعتقال والموقف الحالي.

مأمون: هذا كلام معقول، ولكننا دائما نجد صعوبة في معرفة مواقفكم الحقيقية فمثلاً نسمع عن آراء مختلفة من أشخاص ينتمون إليكم، وإذا أردنا معلومات مثلاً عن

حسابات الدائرة قبل اتخاذ إجراءات الاستيلاء لا نجد من يعطينا لها وفي هذا كله صعوبة شديدة.

الصادق: نحن قطاع من أهل السودان يمكن أن تسمعوا عنا الكثير، فالناس مشارب ويتحدثون، ولكن الحقيقة دائماً سهلة وممكن الوصول إليها بالطريق المباشر والاتصال بالجهة التي تريدون معرفة رأيها.

فاروق: المشكلة التي أمامنا والتي ينبغي أن توضع في الأذهان هي أننا ملتزمون بقرار يمنع إجراء أي مفاوضات لأننا ثورة، والثورة بطبيعة الحال لا تفاوض، ولكننا نريد أن نعرف هل من سبيل للتفاهم غير إجراء مفاوضات؟

الصادق: نحن أيضاً لا يلائمنا إجراء مفاوضات، فأنتم قد اتخذتم إجراءات ضدنا تجعل التحدث عن مفاوضات أمراً منتقداً، ولكن الشكليات غير مهمة ويمكن التوصل إلى الأسلوب الصحيح للحوار إذا رغبت الأطراف المعنية في ذلك. إنني شخصياً أحس بإدراككم لضرورة اتخاذ مسلك قومي بعيد من النفوذ الشيوعي، ودليلي على ذلك بيانكم عقب تصريح السيد بابكر عوض الله، فإذا تأكد أن سياستكم متخذة هذا الاتجاه فإن إيجاد سبيل للتفاهم يشمل السواد الأعظم من أهل السودان ممكن. ولكنني طبعاً لا أستطيع التحدث عن تفاصيل هذا الموقف إلا بالتشاور مع السيد الإمام، ونحن لنا رجال لا بد من إشراكهم في هذا الأمر. ولذا فإن إيجاد أسلوب للتفاهم في نظري ممكن ما دامت القاعدة هي قومية المسلك ولكن تفاصيل هذا كله تخضع لمشاورات.

فاروق: لقد أرسل لنا السيد الإمام نقاطاً محدودة فيها الدستور الإسلامي، وتحديد عمر هذا النظام، إلخ. وهذه النقاط ليست للتفاهم بل هي لتصفية النظام الحالي كله، فما رأيك في هذا الموقف وهل ما قلته أنت في بداية حديثك يمثل رأيك وحدك أم يشمل رأي السيد الإمام أيضاً؟

الصادق: عندما قام الوضع الحالي نحن اعتقدنا أنه استيلاء شيوعي على حكم البلاد، وواجبنا في هذه الحالة المقاومة. بعد ذلك وصلتنا معلومات أنه بالرغم من وجود شيوعيين في أفراد الوزراء المختارين إلا أن الحزب الشيوعي لم يكن الموجه لما حدث، ولذلك ظهر لنا احتمال الوصول إلى قاعدة تفاهم مع النظام الجديد للأخذ بيد البلاد.

لقد كنت أنا بالعاصمة وكان السيد الإمام بالجزيرة أبا فسافرت أنا للجزيرة أبا حيث تفاهمت مع السيد الإمام على موقفنا من الوضع الجديد وبقيت هناك إلى أن وصلنا ما يؤكد إمكانية إجراء حوار مثمر، أكد لنا ذلك الرائد الفاتح عابدون والأمير عبدالله نقدالله الذي جاء إلى أبا لينقل إلينا انطباعاته المشجعة عما دار في اجتماع مجلسكم به. وفي الجزيرة أبا تم اتفاقنا على أسس صالحة للتفاهم بيننا وهي الأسس التي ذكرتها للسيد نميري في اجتماعي به يوم ٣/٦/٦٩ وقد أبلغته إياها شفهياً وتحريرياً، وكل ما قلته له وسلمته إياه موجود معي الآن مكتوباً ويمكن أن أعطيكم نسخة منه إن لم يسبق لكم الإطلاع عليه. تلك الأسس مؤيدة من قبل السيد الإمام الذي يعتبرني مندوباً عنه لإجراء تلك المحادثات. ولكنكم بعد ذلك تصرفتم نحونا تصرفات باعدت الشقة، وقطعت عرى الاتصال، وإنني لا أستطيع القطع في أمر يتناول تفاصيل تصلح إلا بعد الاجتماع بالسيد الإمام وإجراء المشاورات المشار إليها. وإنني لا أقول ذلك لأنني أريد أن يفك اعتقالي كمدخل للتفاهم، فإنني سعيداً جداً بالمجال الذي وجدته في الاعتقال في جبيت وفي بورتسودان وفي شندي، وتستطيعون الرجوع إلى تقارير ومشاهدات المسؤولين الذين باشروا الاتصال بي في تلك المعتقلات للتأكد من عدم تبرمي بالاعتقال وانشغالي بما ينفع روحي وعقلي. كل هذا يؤكد أنني لم أضق بأي واحد من تلك المعتقلات، والآن أنا لست ضائقاً بهذا المعتقل ولكن إذا أردتم التفاهم معنا فهذا لا يمكن الشروع فيه جدياً إلا بعد إجراء المشاورات التي ذكرتها لكم سابقاً. وأريد أن انتهز هذه الفرصة لأقول لكم إن اتهاماتكم لنا بالرجعية والتحالف مع الاستعمار والثورة المضادة اتهامات غير صحيحة وظالمة. فإن جميع شعارات التقدم ومشروعاته رفعناها قبل الناس، وشرعنا فيها كالإصلاح الزراعي، والإصلاح الإداري، والسيطرة السودانية على الاقتصاد السوداني، وتحريك الريف والبادية في السودان..إلخ. هذا وغيره يؤكد بطلان الاتهام بالرجعية. وتستطيعون العودة لكل المراجع فلن تجدوا لنا صلة صاغرة مع أية جهة أجنبية، فنحن الذين فتحنا باب تسليح الجيش السوداني من الاتحاد السوفيتي وتشيكوسولفاكيا في ديسمبر ١٩٦٦ م، ونحن أوائل من أدان السياسة الأمريكية في فيتنام في ديسمبر ١٩٦٦ م، وفتحنا باب العلاقات الجادة مع العالمين العربي والأفريقي، وحتى الاعتراف بألمانيا الشرقية فقد اقترحناه لاجتماع وزراء الخارجية العرب قبل مؤتمر القمة الذي عقد في الخرطوم، مما ينفي أية صلة بالاستعمار في أية صورة من

صوره.

أما الحديث عن الثورة المضادة فغير صحيح، فنحن نؤمن بمبادئ ثورية مصلحة صالحة، ولكننا ضد الشيوعية لا لخوفنا من أي مصالح تؤمم، فنحن في هذا الصدد نقدم دائماً مصالح الأمة على المصلحة الخاصة، ولا أذيع عليكم سراً إن قلت إنني قررت أثناء تولي الحكومة استيلاء الحكومة على ممتلكات شركات وأفراد منها دائرتي المهدي والميرغني سداداً لمتأخرات الضرائب عليها، وأعطيت تعليمات بذلك للسيد حمزة ميرغني وزير المالية الأسبق والسيد حمزة ميرغني رأى أن يتخذ أسلوباً آخر لتحصيل تلك المتأخرات من الضرائب، ولذا فإننا لا نرى حداً أو قيداً في سبيل المصلحة العامة.

ولكن الشيوعية عبودية لدولة أجنبية، وقد سعينا مراراً في أن نحمل الشيوعيين السودانيين للتمسك بالاشتراكية في صورها غير الشيوعية، ولكن الارتباط العضوي بين حزبهم ومركز الشيوعية العالمية في موسكو قفل أبواب الصلة بينهم وبين أهل السودان.

مأمون: يشاع دائماً إن لكم معاملات واتصالات مع بعض الشيوعيين وخاصة عبد الخالق محجوب.

الصادق: ليست لنا اتصالات إلا في إطار إيجاد المخارج للبلاد، ونحن نعتقد أن جزءً من واجبنا أن نجد المخارج القومية السلمية لأزمات البلاد. حدث ذلك في مناسبات عديدة فعندما حل المجلس العسكري الأعلى في أكتوبر ١٩٦٤ م وجاءنا الضابطان الطاهر المقبول وعوض عبد الرحمن لم نشأ أن يكون التفاهم خاصاً بنا، بل رأينا أن يشمل التفاهم كل ممثلي الحركة السياسية فتم الاجتماع ببيت المهدي الذي أسس التفاهم وميثاق أكتوبر. ويمكن الاستشهاد على هذا المسلك في مناسبات مختلفة بعدد من الأشخاص، وهذا المسلك نابع من إيمان حقيقي بأن السودان لا يمكن أن يحكم بالقوة فهو واسع المساحة مشتت الولاءات كثير العصبيات ولا بد لاستقرار الحكم فيه من قدر معلوم من الرضى والاقتناع. ولذلك تعجبنا وما زلنا نتعجب لاتهامنا باستغلال العنصرية لتولي السلطة في البلاد!

فاروق: نستطيع أن نقول إن خلاصة رأيك حول الموقف أنك ترى أنه يمكن إيجاد أساس للتفاهم بأسلوب يتفق عليه ما دام المنطلق هو قومية المسلك، وأنك ترى أن

بحث هذه الأمور لا بد أن يتم بعد المشاورات المشار إليها.

الصادق: نعم.

مأمون: نحن مسافران الآن فهل تحتاج لأي شيء أو لديك أي طلب؟

الصادق: لا مع الشكر)[1].

تعليق على لقاء شندي

هذا اللقاء ليست له أهمية من ناحية عملية فلم يترتب عليه شيء، ولكنه برأيي مهم من ناحية إبراز التفاهم أو التلاقي بين قادة النظام والأنصار، فهم تلمسوا رأي الإمام الذي برأيهم لا يؤدي لإمكانية حوار، كما أن السيد الصادق يبدو مطالباً بلقاء الإمام، وكما كررنا فقد كان السيد الصادق هو الذي في موضع العسرة وليس الإمام بأبا كما كتب البعض ممن تسقط الحاسة التاريخية لديهم.. كذلك يبدو في كلامه مع الانقلابيين غير مشحون بالمرارة التي تقتضيها حاله من حبسٍ انفرادي استطال، وهجوم إعلامي، بل ومحاولات اغتيال، ولا زال الباب مواراباً برأيه لحديث طالما ارتأوا البحث عن مخرج بشكل قومي وبدون فيتو شيوعي. ومأخذه على الشيوعية كما جاء في اللقاء هو ارتباطاتها الأجنبية أو العبودية لمركز الشيوعية العالمية بموسكو بحسب تعبيره.

هناك خاصية في السيد الصادق عجيبة، فمع كثرة الذين يستعدونه ويستهدفونه بالأذى، نجده دائماً مستعد لتجاوز ذلك الأذى كأن الغل منزوع عن صدره بالسليقة، ومستعد للتفاهم مع الجميع.

وستجد مثل هذا المسلك لدى السيد الصادق دائماً بشكل يضج منه البعض، فناهيك عن انقلاب مايو الذي أطاح بسلطة كان هو أول منتقديها، إننا سوف نرى مع انقلاب «الإنقاذ» الذي أطاح به وبالإجماع القومي الفريد الذي صاغه حينها باتجاه المؤتمر القومي الدستوري المزمع في سبتمبر ١٩٨٩م.. إنه سرعانما ظن بأن الانقلاب لا تحركه أيدٍ أجنبية، كما قال، كتب مذكرة لرئيس الانقلاب يحثه على البحث عن مخرج قومي ووجدت بجيبه لدى اعتقاله.

(١) محضر بسجن شندي في ١ نوفمبر ١٩٦٩م.

والملاحظة المهمة الأخرى أن أحداث الجزيرة أبا لم تكن بعد في الأفق. وأنت ترى أن الصادق يريد أن يلتقي الإمام قبل الحديث عن أي موقف، بل ويؤكد أن رغبته في لقاء الإمام ليست ضجراً من الاعتقال ولكن لبحث القضية العامة.. شكراً لهذا المحضر. فبغيابه انسل مرجفون!

من جهة أخرى، وجدت ملفا كاملاً لمكاتبات الحبيب الإمام الهادي في أواخر عام ١٩٦٩م وشهري يناير وفبراير ١٩٧٠م. حتى ذلك التاريخ فإن مكاتبات الإمام الهادي لا تظهر يوميات حرب. على العكس من ذلك، هنالك برقيات تهنئة بعيد الفطر المبارك في يناير ١٩٧٠، وتعازي من الإمام الهادي قبلها وبعدها في وفيات أهمها ربما وفاة السيد عبد الرحمن علي طه في نوفمبر ١٩٦٩م، ومعاودة لمرضى مثل خطابه إلى «حبيبنا ووكيلنا الشيخ الخواض جاد الله» وفيه أنه بلغه «أنك كنت تشكو من لطف ألم بك وعلى أثره رقدت في المستشفى وأنه قد أجريت لك عملية»، ومكاتبات حول مطلوبات لمكتب الإمام بأبا مثلا دولاب لحفظ الدوسيهات، ومكاتبات من الإمام لمسئول سعودي ليتوسط لمساعدة السيد إسحق الخليفة شريف، ومكاتبات بالشكر لمن تبرع لبناء جامع الكون، ورسالة لشخص طالب بمساعدته في عمل (كشك) والإمام وعد بالمساعدة، ورسائل من كثيرين يبلغونه التحايا، والبعض يسأل عن حال السيد الصادق ويتمنى فك أسره، وهناك مكاتبة مع الناظر بابو نمر الذي أرسل يؤكد بقاءه على العهد وذكر أن الحزبية ذهبت بغير رجعة، فرد الإمام عليه بأن المهم ليست الحزبية ولكن الحرية التي ينص عليها الإسلام. وفيما عدا مكاتبات قلائل إحداها تدعو للصبر الجميل وأخرى تؤكد أن الله ينصر من ينصره، فإن الوضع الذي نتخيله حول أن أبا كانت مستهدفة والبقاء فيها شدة لا يظهر من قريب أو بعيد، وأنى له أن يظهر إلا بقراءة الغيب؟ وعلى العكس يظهر أن المعتقل هو الشدة، فقد جاء في خطاب الإمام الهادي للحبيب عبد الرحمن أبو البشر في يناير ١٩٧٠م[1] تهنئة له بفك الأسر وحمداً لثباته في المعتقل، ومع ملاحظته أن السودان كله معتقل قال الإمام الهادي: (ولقد علمنا أيضاً من الذين كانوا

(١) الحبيب عبد الرحمن أبو البشر من قيادات الأنصار في كادقلي وكان رئيس الحزب هناك وهو عضو الآن، بمجلس الحل والعقد لهيئة شئون الأنصار ونظرا لمجاهداته المستمرة فقد أنعم عليه الحبيب الإمام الصادق المهدي مؤخرا بلقب الأمير.

معك في المعتقل من الأحباب بموقفك الصلب إبان الفترة التي اعتقلت فيها، والذي إن دل على شيء إنما يدل دلالة واضحة على رسوخ العقيدة وصدق الوقوف بمعرفة ويقين إلى جانب نصرة دعوة الحق والتزام بها في كل الظروف والأحوال).

هذا مع ملاحظة أن العم الحبيب أبو البشر كان معتقلاً مع جماعة، وهذا أهون بمراحل من الحبس الانفرادي الذي كان فيه الحبيب السيد الصادق يومها، والذي عزم على ملاقاته بالعبادة والانصراف لمهام جسام على رأسها بلورة أسس البعث الديني والنهضة الوطنية، وقد رأينا أنه استطاع ذلك وحدّث به الأوراق، كما حدثها عن وحشة نفس غزته مرة وربما مرات.